أصوات العربية والقرآن الكريم

منهج دراستها وتعليمها عند مكي بن أبي طالب القرني ٤٢٧ هـ

للدكتور عبد الله ربيع محمود
الأستاذ المشارك بالكلية

إن ما أصاب بعض المسلمين - في عهودهم الأخيرة - قد جعلهم يظنون - إلا من عصم الله - أن الاشتغال بهذا الجانب الكريم من تجويد القرآن أمر خاص بالمشايخ ، الذين يلتمسون بتلاوة القرآن الأجر والرزق ... ولاضير إذن على من سواهم إذا أغفل هذا العلم أو تناسى ذلك الأمر الجاد الخطير [1] .

والمنتظر بعد ذلك معروف :

لحن واضح جلي في نطق أصوات القرآن الكريم ، واضطراب ظاهر باد في أداء أصوات العربية ، وجهل منتشر مخيف بعلم هذه الأصوات وقوانين نطقها وأدائها ، وتجمعها وتفرقها ، وسماعها وإدراكها .

وإياك أن تظن أن هذا مما شاع بين العامة فقط ، فنسب إلى لحنهم ، وسلم منه الخاصة ، فإن الأمر على غير ذلك ، إذ أن كثيرا من الخاصة قد شاركوا العامة في هذا ، بالفعل أو بالقوة ، بالفعل عندما ينطقون كما ينطق العامة ، بلا تحفظ ولا بيان ، ولا تحسين ولا تجويد ، فتخرج الأصوات من أفواههم شاكية باكية ، شاحبة ضائعة ... وبالقوة عندما تصك آذانهم كل وقت ، تلك الصور المشوهة لأصوات العربية الجميلة ، فلا يغيرون ولا ينكرون ، وقد يقع ما كرهوا ونكره في قراءة كتاب الله فيعظم الأمر ويشتد الخطب . وقد يكون بعض هؤلاء ممن وكل إليهم تربية أبناء المسلمين ورعايتهم وتعليمهم ، فحدث - ولا حرج - عن آثار القدوة إذا ساءت ، والأسوة إذا انحرفت ..

. . . . . .

(١) بل ربما ذهب بعضهم إلى ما هو أبعد من هذا فأنكر أحكام التجويد وقوانين الأداء الصوتي للقرآن الكريم ودعا إلى إهمالها كما فعل صاحب كتاب الفرقان .. انظر ص ١٤٤ من الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم للدكتور لبيب السعيد .

فكرت فى هذا طويلا ، ورفعت صوتى الضعيف به أحيانا ، فما راعنى من بنى قومى إلا أصوات بدت أعلى ، وأقوال ظهرت أشد وأقوى .

ظن بعضهم أننا ندعو إلى حدث عندما قلنا : بأن درس العربية وتعليمها محال أن يتم ، دون معرفة واسعة بأصوات هذه اللغة ، وتدريب متواصل مستمر على نطقها وأدائها ، وأن قراءة القرآن الكريم وتلاوته ، والوصول إلى كثير من دقائقه وأسراره ، وحكمه وإعجازه ، وأحرفه ورواياته ، لا يمكن أن يتم دون التعمق فى دراسة أصوات لغته ، والتعرف الكامل على تلك الحروف « عظيمة القدر ، جليلة الخطر ، لأن بها أفهمنا الله كتبه كلها ، وبها يعرف التوحيد ويفهم ، وبها افتتح الله عامة السور ، وبها أقسم ، وبها نزلت أسماؤه وصفاته ، وبها قامت حجة الله على خلقه ، وبها تعقل الأشياء ، وتفهم الفرائض والأحكام ، وغير ذلك من شرفها كثير لا يحصى »[1] .

وحسب آخرون أننا عندما نقرن بين التجويد وعلم الأصوات ، ونرى أنهما كالوجهين لعملة واحدة ، وأن الثانى منهما - بمناهجه القديمة والحديثة - خير معين للأول ، إنما نأتى بما لم يعرفه الأوائل ، ومن ثم فلا خير فى ذلك الجمع وعلينا أن نلقن القرآن تلقينا، ونأخذ أداءه ونطقه سماعا وفقط !!

ودون هؤلاء وهؤلاء رأى قوم أن الدواء الشرقى لا يشفى ، وأن فى صيدليات الغرب وحده خير ما تشفى به العلل ، وماذا علينا إذا كنا لا نجد فى علمنا ما يوضح المنهج ويرسم الطريق أن نأخذ بمناهج الآخرين ؟

هكذا قالوا عندما صحنا : هل من سبيل إلى منهج علمى ، نطب به لأدوائنا الصوتية ، ونشفى به تلك العلل التى أصابت نطقنا وأداءنا لذلك الكتاب العربى المبين ؟

. . . . . .

دفعنى هذا وما يشبهه من آراء ، تلتقى كلها على نظرة غير مصيبية فى مشكلتنا الصوتية والتجويدية ، إلى أن أبدأ بهذا التساؤل :

- هل حقا تعد دراسة الأصوات بدعا من القول ، ونافلة فى تفكيرنا الإسلامى ؟

---

(١) مكى بن أبى طالب : الرعاية ص ٧٣ .

ـ وهل حقا يمكن دراسة الصوت القرآنى ، وتعليمه ، وتجويده بعيدا عن التفكير الصوتى فى لغة العرب وكلامهم ؟

ـ وما موقف أسلافنا من « أهل القرآن » من هاتين القضيتين ؟ وما منهجهم إذن فى دراسة أصوات القرآن الكريم وتعليم أدائه ؟

وفرضت على طبيعة هذه الأسئلة وظروفها ، أن أبحث عن الإجابة المرضية عند السابقين الأولين من أهل الفضل والعلم ، فطرقت أبوابهم ، وفتشت فى أعمالهم ، فاستوقفنى عمل جيد ، لعالم جليل ، خدم العربية والقرآن فى نأناة العلم ، وبهجة الإسلام ، وقدم إلى المكتبة الإسلامية والعربية ما يقارب التسعين من المؤلفات ، فى القراءات ، واللغة ، والتجويد ، والفقه ، والأخبار ... ظهرت فيها جميعا آثار علمه وتقواه ، وعقله وتجربته ، ودعائه المستجاب أن ينفع الله بها المسلمين علما وعملا ..

إنه كتاب « الرعاية » لأبى محمد مكى بن أبى طالب القيسى القيروانى [1] ثم الأندلسى القرطبى « الامام العلامة المحقق العارف أستاذ القراء والمجودين » [2] الذى ولد فى عام ٣٥٥ هـ بالقيروان ، ومات فى سنة ٤٣٧ هـ بقرطبة ، وقضى ما بين هذين المكانين والتاريخين ، جوابا للآفاق ، من مصر ، إلى الشام ، إلى الحجاز ... يتعلم ويعلم ، ويقرأ ويؤلف ، ويدعو إلى الله فوق أعواد المنابر ، وفى حلقات المساجد ، ومن خلال ذلك كله ، تم له من سعة الثقافة ، وصدق التجربة ، والمشاهدة ، وممارسة التعليم والتربية ، ما أهله للإمامة والريادة ، فى كثير من الفنون ، علما وتعليما ، ونظرا وتطبيقا ..

ومن ثم وقع اختيارنا ـ بعد اختيار الله ـ على كتابه ذاك ، نلتمس فيه ما يشفى العلة ، ويريح الصدر ، ويجيب عن أسئلة خطرت لنا ، وربما مرت بأذهان غيرنا ..

ولكن لم هذا الكتاب بالذات ؟ ولماذا الاقتصار على مصدر واحد ، وفى المكتبة القرآنية والعربية غيره كثير وكثير .. ؟

الواقع أننا نرى فى هذا الاختيار وذلك الاقتصار أمورا أخرى ـ فضلا عما تقتضيه ظروف

---

(١) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التى تلزمها : حققه ونشره الدكتور أحمد حسن فرحات دمشق ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

(٢) ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٠٩ بتصرف يسير ، وانظر ترجمته فى هذه الصفحة والتى بعدها .

البحث ووقته ـ من أهمها أن هذا الأثر الجليل يتمتع بالأصالة ، والأولية ، في موضوعه ، والتفرد فى هدفه ومنهجه ، والتمثيل الصادق للمشكلات الصوتية والتجويدية إلى عصره ، وكيفية معالجتها خاصة عندما تتصل بقراءة القرآن الكريم وتلاوته .

وبهذا الاتجاه القرآنى التطبيقي عد الناس كتاب مكى أول كتاب يصل إلينا ـ حتى اليوم ـ فى تجويد القرآن الكريم ، من مؤلفات السابقين . ورأيت فيه أول عمل علمى ، يجمع صاحبه فيه بين الدراسات الصوتية النظرية لعلماء اللغة ، والدراسات التطبيقية العملية لعلماء القراءات والتجويد ، مضيفا الى كل ذلك من تجاربه الشخصية ما يدعمه ويؤيده .

وكأنى بمكى إذ فعل ذلك ، يعيد للدرس الصوتى رونقه ، ويرد إليه روحه ووحدته ، ويربطه مرة أخرى بالهدف الأسمى ، الذى من أجله نشأ ، ومن أجله يجب أن يستمر كغيره من علوم الإسلام الأخرى .

ذلك أن الدرس الصوتى قد بدأ فى تصورى ـ يوم نزل قوله سبحانه وتعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » [1] .

وقرأ عليه الصلاة والسلام باسم ربه ، ما أُنزل إليه من مولاه ، وسُمى قرآنا من القراءة ، وأمر عليه السلام بكتابة ما أُوحى إليه ، وسمى كتابا من الكتابة ....

لكن قراءته صلى الله عليه وسلم لم تكن أى قراءة ، إنها قراءة من لون معين ، أمر به الوحى ، وعلمه إياه « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » [2] « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » [3] « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » [4] « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » [5] وقبل هذا كله كان التوجيه الأول « يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل

---

(١) الآيات الكريمة من ١ ـ ٥ سورة العلق وهى أول ما نزل من القرآن كما هو معروف .

(٢) الآيات الكريمة من ١ ـ ٤ سورة الرحمن .

(٣) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٣٢ من سورة الفرقان .

(٥) الآيات الكريمة من ١٦ ـ ١٨ سورة القيامة .

القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » [1] .

إنها بلحون العرب وأصواتها ، وبما عرفوا من حروف وحركات ، وجمل وكلمات ، ولغات ولهجات ، لكنها تبقى مع ذلك متميزة بلون أدائى ، يختلف عن كل ما عرف فصحاء العربية ، وفرسان البيان ، فلم يكن غريبا - والأمر كذلك - أن تأخذهم الحيرة أمام هذا الجانب الأدائى ، كما أخذتهم أمام جوانب أخرى ، فتعجز عقولهم عن العثور على فن من فنون أقوالهم ، يجعلون القرآن منه .. وبذلك تتم دائرة الإعجاز ...

وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه القرآن الكريم ، ولقنهم نطقه الجيد ، وأداءه الرائع الجميل ، على تلك الصورة التى عارضه بها جبريل عليه السلام « بتجويد اللفظ ، وتصحيح إخراج الحروف من مخارجها ، ليكون سنة فى الأمة » [2] .

وعن هؤلاء الأصحاب - رضى الله عنهم - أخذ التابعون ، ومن وليهم أخذ عنهم وهكذا أخذت كل طائفة عمن سبقها فى تسلسل نقى ، وتواتر لم يشهد له التاريخ نظيرا ، بالنسبة لنص من النصوص .

ولم يكن تعليم القرآن الكريم وتعلمه يحتاج - فى أول الأمر - إلى اكثر من التلقين والتحفيظ عن طريق السماع والمشافهة ، بأساليبها المتعددة ، فالمعلم والمتعلم قد استقر فى ذهن كل منهما نظام اللغة ، التى نزل بها القرآن ، ولم يبق إلا أن يقدم السابق للاحق هذا النص الكريم ، بصورته الأدائية الخاصة ، ونطقه المحدد المتميز ...

لكن الأمور لم تستقر طويلا على هذا النحو ، إذ سرعان ما انتشر الإسلام ودخل الناس من كل جنس فى دين الله أفواجا ، واهتز النظام اللغوى نتيجة ما تبع ذلك من اختلاط اجتماعي بين العرب وغيرهم ، وظهر ما يسمى باللحن فى نطق أبناء العربية ، وانتشرت الأخطاء فى نطق غيرهم ، ممن حاولوا استخدام اللسان العربى ، واصطناع لغة القرآن الكريم .

وطبعى ألا يسلم الجانب الصوتى والأدائى مما أصيبت به الجوانب والنظم اللغوية

---

(١) الآيات الكريمة من ١ - ٥ سورة المزمل .

(٢) انظر : د. لبيب السعيد : الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم ص ١٤٠ .

الأخرى ، وأن تظهر بعض آثار ذلك على ألسنة بعض الناطقين ، الذين يقرءون القرآن الكريم ، خاصة عندما تقل المشافهة ، ويكثر الاعتماد على النص المكتوب .

ومن ثم برزت حاجة الأمة إلى استنباط النظام الصوتى للعربية عامة ، وللقرآن الكريم خاصة ، وتقنين ذلك وتعليمه « ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها فى الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها » [1] .

ونهض بذلك جماعات من العلماء ، جمع كثير منهم بين الثقافتين القرآنية واللغوية ، فهم حفظة لكتاب الله قراء لآياته ، رواة للغة العرب ، خبراء بكلامهم وأحوالهم .

عكف بعضهم على رواية القراءات القرآنية ودراستها ، فاشتهروا بها ، ونسبت إليهم بعض اختياراتها ، وروايتها ، فأطلق عليهم خاصة لقب القراء أو أهل القرآن ..

وأقبل آخرون على علم العربية ، يبنون قواعده ، ويشيدون أركانه ، ويضعون مقاييسه وحدوده ، فعرفوا باللغويين تارة ، وبالنحويين تارة أخرى تبعا لما عنوا به من جوانب هذا العلم .

وقد كان على رأس هؤلاء جميعا فى بعث التفكير الصوتى عند المسلمين ، الإمام اللغوى القارىء أبو الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ كما كان على قمة هذا التفكير عبقرى العربية ، وحامل لوائها ، الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٧٠ هـ تلميذ الإمام القارىء اللغوى أبى عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ ، ووارث روايته وعلمه .

لقد اكتشف الخليل نظام الأصوات فى العربية ، وأفاد منه ، وقدم خلاصة علمه وفكره إلى تلميذه النجيب « سيبويه » المتوفى سنة ١٨٠ هـ فلم يأل هذا جهدا في البناء عليه والإفادة منه ، عند معالجته لقضايا العربية ، ودراسته لنظمها فى « الكتاب » .

والذى لا نشك فيه ، أن الخليل وتلميذه لم يغفلا مطلقا ، وهما يقننان النظام الصوتى للعربية ، عن نطق كتاب الله ، وطريقة أدائه ، ولم يهملا أى جهد سبقهما به أحد ممن عنى بقراءات القرآن الكريم ، وكيفيات تلاوته وأدائه .

ومن ثم فقد كان عملها ذا طابع عام ، أفاد منه دارس أصوات القرآن الكريم ، كما أفاد

---

(١) من كلام لابن جنى عن النحو بمعناه العام « انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره .. انظر الخصائص جـ ١ ص ٣٤ .

منه الباحث فى أصوات العربية بصورة عامة .

ومع كل هذا فقد تنبه الخليل وتلاميذه إلى ما لأصوات القرآن الكريم من خصوصية ، وما لأدائه من تميز ، فأشاروا كثيرا إلى ما يجوز فى الكلام ، ولا يجوز فى القرآن ، وإلى بعض المظاهر التى تكثر فى قراءة القرآن الكريم ، فوضعوا بذلك أساسا للتمييز بين النظام الصوتى العربى العام ، والنظام الصوتى الأدائى الخاص بالقرآن الكريم ، ومهدوا لتنوع الدرس الصوتى ، إلى ما عرف فيما بعد بعلم الأصوات من ناحية ، وعلم التجويد من ناحية أخرى ، فقد تعددت المشكلات الصوتية وتنوعت ، واختلفت تبعا لذلك اهتمامات العلماء ، وتمايزت مناهج العلوم اللغوية والقرآنية ، وانتشر التأليف المستقل بكل علم من هذه العلوم ، وصار المجتمع العلمى يميز بين اللغويين والنحويين ، والقراء والمجودين .

وعنى اللغويون النحويون بالمشكلات الصوتية التى تتصل باللغة بصورة عامة ، وغلب على منهجهم الجانب النظرى .. على حين كانت عناية المشتغلين بالقراءات بالمشكلات والقضايا الصوتية المتصلة بقراءة القرآن الكريم وأدائه وغلب على منهجهم الجانب العملى ..

وقد ظهر هذا كله بصورة واضحة ، عندما بدأ التأليف ، وظهرت المدونات فى اللغة ، والنحو ، والقراءات ، وغيرها .

والظاهر أن التأليف الخاص بالبحث الصوتى عامة ، والبحث الصوتى القرآنى خاصة ، لم يبدأ فى وقت مبكر ، ولم يواكب أيهما التفكير الصوتى ، الذى بدأ كما أشرنا آنفا ، مع جوانب التفكير اللغوى والقرآنى الأخرى منذ عهد أبى الأسود .

ذلك أننا لا نكاد نعثر - فيما وصل إلينا علمه - على كتاب أو مؤلف خاص بالدراسات الصوتية ، يرجع تاريخه إلى ما قبل القرن الرابع الهجرى .

نعم هناك بعض كتب تحمل أسماء بعض الظواهر الصوتية في القرآن ، مثل ظاهرة الوقف والابتداء ، التى تنسب التأليف فيها إلى جماعة أو لهم كما يقال أبو جعفر الرؤاسى المتوفى سنة ١٨٧ هـ ، فقد قالوا إنه وضع كتابين فى هذا الموضوع ، أحدهما كبير والآخر صغير ، ثم الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وأبو عبد الرحمن عبدالله بن أبى محمد اليزيدى تلميذ الفراء ، وأبو

العباس ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، وأبو الحسن بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ هـ ، لكن كتبهم جميعا مفقودة [١] .

كذلك حفظ التاريخ لنا بعض أسماء كتب تحت عنوان الحروف أو الأصوات ، مثل كتب الأصوات المنسوبة إلى قطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والأخفش سنة ٢١١ هـ ، والأصمعيّ سنة ٢١٣ هـ ، وابن السكيت سنة ٢٤٤ هـ ، وابن أبى الدنيا سنة ٢٨١ هـ ، لكنها ما زالت الى اليوم حسب علمنا مفقودة ، ومن الصعب التحقق من الموضوعات التى عالجتها ، وهل هى فى الدراسات الصوتية ، أو أنها عبارة عن كتب لغوية تجمع الألفاظ المتصلة بأصوات الإنسان ، والحيوان ، وما يشبه [٢] .

ولقد عثرت فى المزهر على بعض نصوص من كتاب ابن السكيت مثل قوله « وفى كتاب الأصوات لابن السكيت حكى : إنه لصرنقح الصوت وصلنقح الصوت بالراء واللام أى صلب الصوت » [٣] وقوله : وقال ابن السكيت فى كتاب الأصوات : الألثغ فى الراء أن يجعل الراء من طرف لسانه ، وأن يجعل الصاد فاء ، والأرث أن يجعل اللام تاء » [٤] .

وهذان النصان يوحيان كما نرى باتصال موضوع الكتاب بالدراسة الصوتية ، وهناك نصان آخران لا نلمح فيهما هذا الاتصال [٥] فهل يا ترى يكفى نصان صغيران للحكم على موضوع كتاب ؟ القضية فى رأيي تحتاج إلى مزيد من البحث والتقصى ، وعسى أن تكشف الأيام عما خفى علينا من أمر هذه الكتب الهامة الفريدة ..

هذا وقد نسب إلى أبى حاتم سهل بن محمد السجستانى ت سنة ٢٥٥ هـ كتاب عنوانه : « الإدغام » [٦] والإدغام - كما هو معروف - من أهم الظواهر الصوتية التى عنى بها القدماء والمحدثون ، وقد جمع سيبويه تحت هذا العنوان اكثر أفكاره الصوتية ، وشرح من أجله نظام الحروف فى العربية ، فليس بعيدا أن يؤلف فيه أبو حاتم الذى كان كما يقول ابن الجزرى « إمام

---

(١) انظر : د. محمد حسين آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ص ١٩٥ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٩٥ وما بعدها .

(٣) السيوطى : المزهر جـ ١ ص ٥٥٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٦٦ .

(٥) انظر المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٠ و ص ٢٠٥ .

(٦) انظر : د. محمد حسين آل ياسين : الدراسات اللغوية عند العرب ص ١٩٦ .

البصرة فى النحو ، والقراءة ، واللغة ، والعروض ، وكان يخرج المعمى ، وكان إمام جامع البصرة ، وله تصانيف كثيرة ، وأحسبه أول من صنف فى القراءات » وإن كان ابن الجزرى لم يشر فى ترجمته إلى هذا الكتاب ولا إلى غيره من تصانيفه [١] .

كذلك كانت هناك مؤلفات تحمل اسم الهمز ، أو أسماء بعض الحروف العربية ، مثل كتاب الهمز لأبى زيد سنة ٢١٥ هـ ، واللامات للأخفش سعيد بن سعدة سنة ٢١١ هـ ، والألف واللام لأبى عثمان المازنى سنة ٢٤٩ هـ وأرجوزة الضاد والظاء المنسوبة إلى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ ، لكننا لا نستطيع القول بأنها تدخل فى دائرة الدراسات الصوتية ، لأن ما وصل إلينا منها لا يمثل هذه الدراسات ، بقدر ما يمثل الجانب النحوىأو المعجمى أو اللغوى العام [٢] .

ومن التأمل فى هذا العرض السابق ، يتضح لنا أن القضايا والأفكار الصوتية ، ظلت متناثرة غير مجموعة ، مختلطة بغيرها ، غير مفردة بالتدوين والتأليف المستقل ، حتى كانت نهاية القرن الثالث ، ودخول القرن الرابع فبدأ ظهور المؤلفات المستقلة ، فى الدراسات الصوتية العربية العامة ، أو الخاصة بأصوات القرآن الكريم .

وكانت القصيدة « الخاقانية » كما يقولون أول ما ألف فى علم أصوات القرآن الكريم أو التجويد .

يقول صاحب كشف الظنون : « وأول من صنف فى التجويد موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخاقانى البغدادى المقرىء المتوفى سنة ٣٢٥ هـ .. » [٣] .

وقد ذكره ابن الجزرى فقال « إمام مقرىء مجود محدث أصيل ثقة سنى .. قال الدانى : وكان بصيرا بالعربية شاعرا مجودا .. قلت : وهو أول من صنف فى التجويد فيما أعلم وقصيدته الرائية مشهورة ، وشرحها الحافظ أبو عمرو .. » [٤] وقد ذكر ابن الجزرى فى موضع آخر أن أبا عمرو شرح هذه القصيدة فى مجلد [٥] .

---

(١) ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ ص ٣٢٠ ويلاحظ أن ابن الجزرى ذكر فى النشر جـ ١ ص ٣٤ أن « أول إمام معتبر جمع القراءات فى كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام توفى سنة ٢٢٤ هـ » .

(٢) انظر : د. محمد حسين آل ياسين : المرجع الأسبق ص ١٨٩ وما بعدها .

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون جـ ١ ص ٣٥٣ .

(٤) ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء جـ٢ ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٥) ابن الجزرى : المرجع السابق جـ١ ص ٥٠٥ .

وقد أشار الخاقانى فى قصيدته تلك إلى أهمية معرفة اللحن ، وجعل هذه المعرفة مقرونة بإتقان حفظ كتاب الله ، وبين الغرض منها ، وأنه لا عذر لمن لا يعرفها قال :

فأول علم الذكر إتقان حفظه ومعرفة باللحن من فيك إذ يجرى
فكن عارفا باللحن كيما تزيله وما للذى لا يعرف اللحن من عذر (١)

كما أشار - رحمه الله - إلى وجوه أداء القرآن الكريم ، وإلى ما رخص فيه منها تيسيرا على الدارسين إذ يقول :

وترتيلنا القرآن أفضل للذى أمرنا به من لبثنا فيه والفكر
وفيها حدرنا درسنا فرخص لنا فيه إذ دين العباد إلى اليسر (٢)

وبين أن الحروف لا بد أن تأخذ حقوقها ، فى كل وجه من هذه الوجوه :

فذو الحذق معط للحروف حقوقها إذا رتل القرآن أو كان ذا حذر (٣)

وكم كنا نود الوقوف على نص كامل لهذه القصيدة التى تعد أولى المنظومات فى فن كثر فيه هذا اللون من النظم العلمى ، وما يزال أهل القرآن يمارسونه أو يتناقلونه حتى اليوم ، ولكن هدفنا الأصلى يدعونا إليه ، وضيق الوقت يحبسنا عليه ، فلنؤجل ذلك إلى وقت آخر ...

وإذا كانت الخاقانية مهما بالغنا فى تقديرها لا تعدو أن تكون منظومة توجيهية تعليمية كما تتصور ، فإنها تدل على قرب المخاض ، وتبشر بما ولى ظهورها من نضج فى الدرس الصوتى ظهرت آثاره أولا فى أعمال أبى الفتح ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ وخاصة فى مؤلفه الفريد « سر صناعة الإعراب » الذى يعد بحق أول كتاب فى علم الأصوات العربى العام ، ثم تجلت ثانيا فى أعمال إمامنا وشيخنا أبى محمد مكى بن أبى طالب ، وخاصة فى كتابه الرائع الفريد « الرعاية : لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ، ومخارجها ، وصفاتها ، وألقابها ، وتفسير معانيها وتعليلها وبيان الحركات التى تلزمها » والذى يعد بحق أول كتاب فى علم الأصوات العربى القرآنى .

---

(١) محمد مكى نصر : نهاية القول المفيد فى علم التجويد ص ٢٢، ٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٨ .

ولم يكن عجيبا أن ترى بين هذين العملين المتقاربين زمنا ، كثيرا من أوجه التشابه ، وأن تحس أنهما - على الرغم من اختلاف الهدف والمنهج - يأخذان من معين واحد ، ويرجعان إلى مصدر متحد ، وما أظنه إلا فكر الخليل وسيبويه ، ومن وليهما من أتباع مدرستهما من أهل العلم والقرآن .

ولم يكن مدهشا أن يعلن كل منهما فى مقدمة كتابه ، أنه لم يسبق إلى مثل هذا العمل الكبير .

يقول ابن جنى بعد حديثه عن غرضه ومذله « بهذه الصناعة الكثير منتحلها والقانع بالتمويه فيها ، القليل محصلها ، والمطالب نفسه بأداء فروضها » [1] وعن تجشمه لطاعة صاحبه المضض « بانكشاف أسرار هذا العلم ، وبدوها لمن يتدرعه وهو عار منه ، ويقرب إليه ، وهو ناء عنه ، ويظهر اللطف له والحفاوة ، وهو الغاية فى الجهل به والغباوة ...الخ » [2] : « وما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض فى هذا الفن هذا الخوض ، ولا أشبعه هذا الإشباع ، ومن وجد قولا قاله والله يعين على الصواب بقدرته » [3] .

ثم يأتى مكى بعده فيقول : « وما علمت أن أحدا من المتقدمين سبقنى إلى تأليف مثل هذا الكتاب ، ولا إلى جمع مثل ما جمعت فيه من صفات الحروف ، وألقابها ، ومعانيها ، ولا إلى ما اتبعت فيه كل حرف منها من ألفاظ كتاب الله تعالى ، والتنبيه على تجويد لفظه ، والتحفظ به عند تلاوته » [4] .

والبحث العلمى حتى الآن يصدق الرجلين ، فما علمنا - كما سبق قوله - أن هناك من سبق ابن جنى إلى وضع كتاب مثل كتابه ذاك الخاص بعلم الأصوات العام من أصحابه بل وربما من غيرهم عربا أو عجما ، وما رأينا فيما ورثناه عن أسلافنا كتابا يعالج قضايا الأصوات والتجويد ، يسبق « الرعاية » ويتقدم عليه .

وما أظننا بحاجة إلى القول بأن اختلاف الهدف والمنهج ، عند كل من هذين العالمين ، لا يترك فرصة لأى شك فيما ذهب إليه مكى من إعلان التقدم . والسبق ، لكن الذى نعجب له

---

(١) ابن جنى : سر صناعة الإعراب جـ ١ ص ٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ٦٣ .
(٤) الرعاية ص ٤٢ .

كيف لم يطلع مكى على كتاب ابن جنى ، وكيف لم يشر إليه ، وهو فى صلب الموضوع الذى نذر نفسه لمعالجته ؟

هل يمكن القول بأن مكيا الذى طاف بالمشرق ، وحصل ما عند أهله من ثقافات فى مصر ، والحجاز ، والشام .. والذى عرف أبا على الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ أستاذ ابن جنى ، وألف منتخب حجة أبى على الفارسى « فى ثلاثين جزءا [١] - لم يعرف ابن جنى ، ولم يصل إليه خبر كتابه « سر الصناعة » ، علما بأن مكيا لم يبدأ تأليف كتابه « الرعاية » إلا سنة تسعين وثلاثمائة ، كما يقول [٢] وكان ابن جنى فى هذا التاريخ حيا يرزق ، وإن كان في نهاية أيامه وعمره فقد توفى سنة ٣٩٢ هـ .

وربما كان من الممكن القول بأن ابن جنى لم ينل الشهرة إلا بعد وفاته بزمن طويل ، لكن شيخنا النجار لا يؤيد هذا الرأى إذ يقول « ولكن التوسع فى دراسة ابن جنى قد يصرف عن هذا الرأى ، وقد يئول بصاحبه إلى أن الرجل أوتى حظا من الشهرة العلمية في حياته ، ورزق من القبول ما هو أهله ، ألسنا نراه يخلف أستاذه أبا على فى التدريس فى بغداد ، بعد وفاته ، ويدين له بالتلمذة تلاميذ أبى على ومنهم أئمة عظام عبد السلام البصرى ، والسمسمى ، وأبو على لا ينكر أمره وأستاذيته ... » [٣] ثم ينقل عن ابن جنى نفسه ما يدل على شهرة كتبه ومؤلفاته ، إذ يقول عنها فى قصيدته البائية :

تناقلُها الرواة لها على الأجفان من حدب
فيرتع فى أزاهرها ملوك العجم والعرب
فمن مغن إلى مدن إلى مثن إلى طرب [٤]

فهل يا ترى عجز هؤلاء الرواة ، وقد أجيز بعضهم بسر الصناعة منذ عام [٥] ٣٨٤ هـ عن توصيل هذا الكتاب إلى ذلك الباحث العلمى المتعمق ، ليجد فيه المعونة على تأليف كتابه ، ومواصلة بحثه فى عام ٣٩٠ هـ ، أو أنهم أوصلوه متأخرين عن هذا التاريخ فكان مما

---

(١) انظر : د. أحمد حسن فرحات : مقدمة تحقيقه لكتاب الرعاية ص ٧.
(٢) الرعاية ص ٤٢ .
(٣) انظر مقدمة الشيخ النجار لكتاب الخصائص ص ٢٥.
(٤) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٥) المرجع نفسه ص ٦٠، ٦١ .

قوى به الله النية ، وحدد البصيرة ، على إتمام « الرعاية » بعد ذلك بنحو من ثلاثين سنة ؟ .

احتمالات كثيرة تفرض نفسها على الباحث ، ويمكن ترجيح بعضها ، بدراسة علمية مقارنة لكل من الكتابين : سر الصناعة والرعاية .. والمستقبل كفيل بها إن شاء الله .

وهكذا تم استنباط النظام الصوتى للعربية عامة ، وللقرآن خاصة ، على يد تلك الطائفة من العلماء ، الذين جمعوا بين علوم اللغة والقرآن ، واتخذ تعليم الأداء الصوتى والتجويدى منهجا آخر ، أوسع من منهج التلقين والمشافهة ، وصارت المعرفة الصوتية علما ذا فروع متعددة ، تبعا للموضوعات والمسائل التى يعالجها أصحاب هذا العلم .. وظهرت المؤلفات الصوتية ، وتنوعت كذلك ، وثبت منها واستمر ، ذلك النوع الذى جعل القرآن الكريم موضوعه ، وتحسين أدائه وتجويده هدفه ، والذى كانت بدايته الحقيقية ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ على يد مكى أبى طالب .

وهنا يجدر بنا أن نقف مع مكى ، لنتعرف بوضوح على موقفه من الدراسة الصوتية ، ومن العلاقة بين الدرس الصوتى العام ، والدرس الصوتى الخاص بأداء القرآن الكريم وتلاوته ، ثم نحاول الكشف عن منهجه في تعليم أصوات القرآن والكلام .

إن الوقوف على هدف مكى غرضه يوضح لنا كثيرا مما ذكرنا ويهدينا إليه .

ماذا كان مكى يريد ؟ وإلام كان يهدف ؟

لقد وضح الشيخ هدفه ، وبين غرضه ، فى ترجمة كتابه ، وفى مقدمته الجيدة ، وفى ثنايا مباحث هذا الكتاب وقضاياه ..

سمى عمله « الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ... فبين لنا أنه ـ كما عَرَّفْنَا عنه ـ لا يقصد بهذه التسمية مجرد عنوان يعرف به كتاب ، أو يطلق على مؤلف ، وإنما يقصد بكل كلمة فى هذه الترجمة معنى يبين غرضه ، ويشير إلى هدفه .

إنه يريد أن يحقق ببحثه ذاك الذى طالت صحبته له ، فكانت نحو ثلاثين سنة الوصول إلى القراءة الجيدة ، والتلاوة الحقة لكتاب الله ، والمحافظة على ذلك المستوى الأدائى المتوارث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراقبة الصادقة لكل ما يمت بصلة لذلك الأداء القرآنى ، حتى لا ينحرف به أحد ، أو يضل فيه عن السبيل .

وتلك حقا مقتضيات الرعاية ..

ومن الواضح أن الشيخ قد جمع فى عنوان بحثه بين التجويد ، والتحقيق من ناحية ، والقراءة ، والتلاوة من ناحية أخرى .

فهل كان من وراء هذا الجمع تحقيق لهدف أو إشارة إلى غرض ؟

فى تصورى أنه لم يفعل ذلك اعتباطا ،وأنه قصد به التنبيه إلى ما أشرنا إليه من أن رعايته لا تتم إلا إذا راعى أمرين هامين مترابطين هما تجويد القراءة ، وتحقيق لفظ التلاوة .

ومقتضى هذا أنه يعنى بالقراءة شيئا غير التلاوة ، وبالتجويد معنى غير التحقيق ، وأن مصطلح « التجويد » لم يكن حتى هذه الفترة - فيما يبدو - قد أخذ المفهوم العام الذى يرتبط به الآن ، فى أذهان الناس .

ولعلنا عندما نعرف الفرق بين كل من القراءة ، والتلاوة ، والتجويد ، والتحقيق عند مكى ندرك دقة تحديده لغرضه ، كما ندرك قوة نظره ، وصدق تحليله فى بحثه ودراسته .

يذكر « التهانوى » « أن القراءة هى - عند القراء - أن يقرأ القرآن ، سواء كانت القراءة تلاوة ، بأن يقرأ متتابعا ، أو أداء بأن يأخذ من المشايخ ويقرأ كما فى الدقائق المحكمة .. » [1]

أما التلاوة فإنه يقول عنها : «التلاوة بالكسر كما فى بعض كتب اللغة وعند القراء : قراءة القرآن متتابعا كالأوراد ، والأسباع ، والدراسة ، والفرق بينها وبين الأداء والقراءة أن الأداء الأخذ عن المشايخ والقراءة تطلق عليهما فهى أعم منهما كذا فى الدقائق المحكمة شرح المقدمة في بيان التجويد » [2] .

وقد أشار الراغب من قبل إلى ما بين القراءة والتلاوة من فرق ، حيث أشار إلى أن « القراءة : ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض فى الترتيل .. » وأن التلاوة « أخص من القراءة ، فكل تلاوة قراءة ، وليس كل قراءة تلاوة ، لا يقال تلوت رقعتك ، وإنما فى القرآن فى شىء إذا قرأته وجب عليك اتباعه ... » [3] .

كذلك يتضح أن هناك فرقا بين التجويد والتحقيق .

يقول ابن الجزرى عن التجويد « مصدر من جوّد تجويدا والاسم منه الجودة ضد الرداءة

---

(١) التهانوى : موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون جـ ٥ ص ١١٥٨ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ١٧١ .

(٣) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ص ٧٥ وانظر عن القراءة ص ٤٠٢ منه .

يقال : جوّد فلان فى كذا إذا فعل ذلك جيدا ، فهو عندهم عبارة عن الإتيان بالقراءة مجودة الألفاظ ، بريئة من الرداءة فى النطق ، ومعناه انتهاء الغاية فى التصحيح ، وبلوغ النهاية فى التحسين .. » [1] ثم يقول عنه : « فالتجويد هو حلية التلاوة ، وزينة القراءة ، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها ، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله ، والحاقه بنظيره ، وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته ، وكمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ، ولا إفراط ولا تكلف ... » [2] .

« أما التحقيق ، فهو مصدر من حققت الشيء تحقيقا إذا بلغت يقينه ، ومعناه المبالغة فى الاتيان بالشيء على حقيقته من غير زيادة فيه ولا نقص عنه ، فهو بلوغ حقيقة الشيء ، والوقوف على كنهه ، والوصول إلى نهاية شأنه ، وهو عند أهل هذا الفن عبارة عن إعطاء الحروف حقها من إشباع المد ، وتحقيق الهمز ، وإتمام الحركات ، وتوفية الغنات ، وتفكيك الحروف وهو بيانها وإخراج بعضها من بعض بالسكت ، والترسل ، والتؤدة ، والوقف على الوقوف الجائزة ، والإتيان بالإظهار ، والإدغام ، على وجهه ... وهو الذى يستحسن ويستحب الأخذ به للمعلمين ، من غير أن يتجاوز فيه إلى حد الإفراط ، من تحريك السواكن ، وتوليد الحروف من إشباع الحركات ، وتكرير الراءات ، وتطنين النونات بالمبالغة فى الغنات ، إلى غير ذلك مما تنفر منه الطباع ، وتمجه القلوب والأسماع » .

هذا ما ذكره صاحب نهاية القول المفيد [3] نقلا عن شرح القول المفيد فى معرض حديثه عن أقسام قراءة القرآن ، ومنه يتضح لنا أن التحقيق عندهم بعد طريقا من طرق القراءة ، ولونا من ألوان التجويد ، وأنه أخص من التجويد ، وأنه بمعناه اللغوى والاصطلاحى من أسسه وشروطه .

وإذن فقد كان مكى على وعى كامل عندما جعل غاية القراءة التجويد ، وغاية التلاوة - وهى لون من القراءة يدخله عنصر المتابعة - تحقيق اللفظ أى النطق ، وبلوغ النهاية فى تصحيحه ليكون ذلك سبيلا إلى المستوى الأعلى من التحسين والتجويد .

---

(١) ابن الجزرى : النشر فى القراءات العشر جـ ١ ص ٢١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٣) محمد مكى نصر : نهاية القول المفيد ص ١٤، ١٥ .

وكم كان دقيقا عندما أضاف كلمة « لفظ » التى أتصور أنه عنى بها « النطق » الى التلاوة ، حتى لا ينصرف ذهن أحد إلى المعنى الآخر للتلاوة وهو المتابعة بالاقتداء في الحكم أو العلم والعمل كما أشار إليه الراغب [1] .

وفى مقدمته الرائعة يؤكد الشيخ ما ذهب إليه فى تسمية كتابه فيذكر أنه يهدف بعد العبرة بما فى لطف قدرة الله الكريم ، إلى معونة أهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه ، وإحكام النطق به واعطاء كل حرف حقه من صفته ، وإخراجه من مخرجه ، إذ أنه يجب على كل من قرأ بأى حرف كان من السبعة أن يأخذ نفسه بتحقيق اللفظ ، وتجويده ، وإعطائه حقه ، على ما نذكره مع كل حرف فى هذا الكتاب ، ويكون على تحفظ مما ننصه له ، فيسلم حينئذ من التقصير فى لفظه ويأمن من التحريف فى قراءته ، ويجرى فى قراءته على أصل صحيح ، ولفظ فصيح ، فيكون الغالب على قراءته السلامة من الخلل ، والبعد من الزلل .. فمن التزم بكتابى هذا فى تجويد ألفاظه ، وتحقيق تلاوته ، ممن سلم من اللحن والخطأ ، وضبط روايته التى يقرأ بها ، قام له هذا الكتاب على تقادم الأعصار ، ومرور الأزمان مقام المقرىء الناقد البصير الماهر النحرير » [2] .

أما تذكيره بغرضه وهدفه فى ثنايا القضايا ، وحنايا المسائل ، فأمر يبلغ درجة الشيوع ، فما أظنه ترك الحديث عن حرف ، أو غادره إلى حرف آخر ، قبل نصيحة بتجويد ، أو توجيه إلى تحقيق ، أو إرشاد إلى تحسين ، ولا عجب فعلى هذا بنى قواعد هذا العمل العلمى الطيب .

ولكن أى تجويد يقصد؟ وأى تحقيق يريد مكى فى القراءة والتلاوة وفى الكلام بصورة عامة ؟

هل يريد تلك الصورة المتكلفة التى يلجأ إليها بعض الناس ظانين أنهم يحققون بها النطق الجيد ، والأداء المطلوب ، والتى حذر منها ابن الجزرى فقال « فليس التجويد بتمضيغ اللسان ، ولا بتقعير الفم ، ولا بتعويج الفك ، ولا بترعيد الصوت ، ولا بتمطيط الشد ، ولا بتقطيع المد ، ولا بتطنين الغنات ولا بحصرمة الراءات ، **قراءة تنفر عنها الطباع ، وتمجها القلوب والأسماع** » [3] ؟ أو يريد تلك الصورة الطبيعية المعبرة الخالية من التعسف والتكلف ،

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٧٥ .

(٢) الرعاية ص ٤٣ .

(٣) ابن الجزرى : النشر جـ ص ٢١٣ .

والمبالغة والتنطع ، التى وصفها ابن الجزرى نفسه « بالقراءة السهلة العذبة ، الحلوة اللطيفة ، التى لا مضغ فيها ولا لوك ، ولا تعسف ولا تكلف ، ولا تصنع ولا تنطع ولا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء ، بوجه من وجوه القراءات والأداء » [1] ؟

إن قارىء مكى يرى أنه لا يقصد بعمله سوى تحقيق تلك الصورة الثانية ، التى تتفق مع الطبع وتميل إليها القلوب والأسماع .

ويرى أن مكيا قد أدرك أنه لا سبيل إلى هذه الصورة المثالية المتوارثة ، إلا إذا صار النطق السليم ، والأداء الجيد ، طبعا للقارىء أو الناطق ، وسجية أو ملكة يصدر عنها الصواب والجيد ، دون تكلف ظاهر أو تعسف مشين .

وفى سبيل ذلك الطبع ، ومن أجل الوصول إلى تلك السجية والملكة ، قدم مكى الكثير ، وكرر على مسامع تلاميذه معانى قوله « فقس على ما ذكرت لك من هذه الأصول ، وخذ نفسك في تلاوتك باستعمالها ، يصر لك طبعا وسجية ، وتحسن ألفاظك بذلك ، وتقرأ على أصل وصواب » [2] .

والمتأمل فى هذه العبارة ، وفى منهج مكى بصورة عامة ، يرى أن الرجل قد وضع لنفسه نظرية علمية وتعليمية ربط فيها بين أسس ثلاثة :

أولها : الإثارة والترغيب وربط العلم والتعلم بالدين والأخلاق والسلوك .

ثانيها : العلم النظرى والمعرفة العقلية التامة بكل ما يتصل بجوانب الموضوع .

ثالثها : التطبيق والتدريب والتجريب .

ولعلك معى عندما أقول بأن مكيا قد أدرك بمعرفة هذه الأسس ، والاعتماد عليها ، كل جوانب المشكلة التعليمية ، بالنسبة لأصوات القرآن الكريم ، وبالنسبة لأصوات العربية ، بل ولنظمها جميعا بصورة عامة ، وأنه قد سبق عصره ، وقدم فى هذا الزمن المتقدم ، ما يعده بعض المحدثين اليوم من مكتشفات العصر الحديث ومفاخره .

أدرك مكى أهمية الدافع فى نجاح العمل التعليمي ، وقيمة المثير فى تأجيج الرغبة ، وإشعال الشوق إلى المعرفة . والإجادة ، ورأى أن خير دوافع المسلم ومثيراته مرتبطة بتصوره

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٣ .

(٢) الرعاية ص ٢٣٢ .

الإسلامى النابع من القرآن الكريم ، وسلوكه الدينى المنبعث من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدم بين يدى عمله وبحثه .

« بأبواب مختصرة فى الترغيب فى حفظ القرآن ، وثوابه وفضل أهله ، وما يجب على أهل القرآن من رعايته والقيام بحقه ، وصفة المقرىء والقارىء وآدابهما ، وما يليق ذكره مع ذلك » [1] .

فأهاج الشوق ، وحرك الحنين ، وجلا القلوب ، وأيقظ العقول بما ذكر من فضل القرآن ، وأفضلية تعلمه وتعليمه ، وقراءته وتلاوته ، ومدارسته والاستماع إليه .

ثم عرج على مضارب أهل القرآن ، فحذرهم من طلبه لغير الله ، واستعمال الرياء فيه ، وترك العمل به ، ودعاهم إلى تقوى الله ، وإخلاص العمل لله والتوبة والإنابة « فالذى يلزم حامل القرآن من التحفظ أعظم مما يلزم غيره كما أن له من الأجر ما ليس لغيره » [2] .

ثم رسم الصورة الإيمانية لصاحب القرآن ، ويا لها من صورة يتمنى كل من كان له قلب أن يكون صاحبها ، وما أروع قوله فيها : « وينبغى له أن لا يطلب بالقرآن شرف المنزلة عند أبناء الدنيا من الملوك وغيرهم ، وأن يخلصه لله ، فإن كان قد دخله شىء من ذلك فليتب منه ، وليعتقد الإخلاص لله » .. وينبغى له أن يكون عالما بأهل زمانه ، متحفظا من شيطانه .. وقد قال ابن مسعود - رضى الله عنه : ينبغى لقارىء القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مفطرون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبورعه إذا الناس يخلطون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخضوعه إذا الناس يختالون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون .. » [3] .

ومن ثم أوجب الشيخ ما أوجبه الله ، وأرشد إليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، من تعظيم القرآن ، وإجلال حامله « قال أبو موسى الأشعرى من إجلال الله تعالى إجلال حامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه » [4] .

ثم يصل - رحمه الله - بالحديث إلى طرفى العملية التعليمية وركنيها الحيين : الطالب ، والأستاذ ، فيخصهما بلونين من التوجيهات ، قد مزج بينهما أحدهما يتصل بما يجب أن يكون

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .
(٢) المرجع نفسه ص ٥٨ .
(٣) المرجع نفسه ص ٦٠ ، ٦١ .
(٤) المرجع نفسه ص ٦٢ .

عليه كل منهما من ثقافة ، وعلم ، وعمق نظر وفهم ، وهو أمر يستحق الوقوف عنده ، وسنفعل فى فقرة تالية .

أما اللون الثانى فإنه يتصل بالجانب الخلقى والدينى ، وما ينبغى أن يتحلى به من كساه الله أشرف حلة ، وأورثه أعظم كتاب .

تلك لمحة عما بدأ به مكى من ترغيب ، وترهيب ، وتوجيه ، وتأديب ، وهو فى نظرى جزء هام ، ومبدأ أساسى فى نظرية التعليم الإسلامية ، التى لا تفصل بين العلم والعمل ، والغاية والسلوك ، ما دام القصد كله قد تمحض لله « لقد طلبنا العلم لغير الله فما زال العلم بنا حتى ردنا إلى الله تعالى » [1] وليتنا فى هذا العصر نعود مرة ثانية إلى منهج هؤلاك الأسلاف الذين جعلوا دوافعهم إلى طلب العلم - أى علم - لا تتعدى أسباب إرضاء الله ، وجعلوا سلوكهم فى طريق العلم محكوما دائما بمبادىء العمل لهذه الغاية النبيلة .

ولما كان معروفا أن نجاح أى عملية تعليمية ، لا يتم إلا بتوفر مادة علمية ، تلائم هدف هذه العملية ، وتساعد على تحقيقه والوصول إليه ، فقد صار من المقرر عند أهل الفكر والنظر ، ارتباط الجانب النظرى العلمى بالجانب العملى التعليمى أو التطبيقى ، ولم يعد المجتمع العلمى ينظر إلى فكرة الفصل بين النظر والتطبيق تلك النظرة الضيقة ، التى سيطرت على أفكار بعض الناس فى يوم من الأيام ، حتى ظن فريق منهم أن تعليم اللغة مثلا يجب أن يفصل عن دراستها ، وأن المعرفة بأسرار اللغة وعللها شىء لا يتلاءم مطلقا مع تعلم اللغة ، ومحاولة إجادة الكلام .

ومن ثم فقد أوجب بعضهم الفصل المطلق بين البحث النظرى ، والبحث التطبيقى « وهذا من أخطر ما يمكن أن تصاب به العلوم ، لأن العلم إذا قطع عن الواقع ولم تختبر نتائجه على محك التطبيق فسيبقى مجرد فلسفة ، كما أن التطبيقات إذا أبقيت على أوضاعها الأولى ، ولم يدخل على أسسها النظرية أى تجديد وأى تطوير فسيكون مآلها الجمود و « الروتين » فالبحث العلمى هو واحد سواء كان ما يرمى إليه هو اكتشاف أسرار الأحداث أم كيفية استغلال هذه الأسرار فى مختلف ميادين الحياة » [2] .

---

(١) الرعاية ص ٦٨ .

(٢) عبد الرحمن الحاج صالح : أثر اللسانيات فى النهوض بمستوى اللغة العربية من أعمال ندوة خبراء ومسئولين لبحث وسائل تطوير إعداد معلمى اللغة العربية ص ١٠١ .

وقد كان شيخنا مكى من أوائل هؤلاء الذين أدركوا فكرة وحدة البحث العلمى ، وعنوا فى بحوثهم بالجانب النظرى ، والبحث عن أسرار الظواهر وعللها إلى جانب عنايتهم بالجانب العملى ، والإفادة من كل هذه الأسرار والعلل فى تحقيق هدفهم التعليمى والسلوكى .

ذلك أنه كان يرى أن تحقيق هدفه فى الوصول إلى إجادة النطق وتصويب الأداء محال أن يتم دون الربط بين أساس قوى من العلم والمعرفة النظرية ، وأساس متين من التطبيق والتدريب .

ومن ثم فقد أوجب على نفسه أن يقدم لقارئه قدرا كبيرا من العلم النظرى ، والمعرفة بأصوات العربية ،مراتبها ، ومخارجها ، وصفاتها ، وألقابها ، وتفسير معانيها ، وتعليلها ، وبيان الحركات التى تلزمها » كما عبر عنه فى عنوان كتابه .

كذلك قدم له قدرا جيدا من العلم التطبيقى والصور العملية والتوجيهات التدريبية ، التى تأخذ بيده وتوصله إلى شاطىء الأمان .

وإذا كان مكى قد عنى العناية كلها بأصوات العربية ، ورأى أنه لا غنى لطالب التجويد ، والتحقيق عن دراستها ، ومعرفتها ، على ما سنفصل بعضه إن شاء الله ، فإنه لم يكتف بهذا بالنسبة لأستاذ القرآن وطالبه إذ نراه يشترط فى الأستاذ أن يكون الى جانب ديانته من أهل « الصيانة والفهم فى علوم القرآن ، والنفاذ فى علم العربية ، والتجويد ، بحكاية ألفاظ القرآن، وصحة النقل عن الأئمة المشهورين بالعلم » [1] كما يشترط فيه أن يكون حاذقا ، فطنا ، بأن يكون علمه بالتجويد : رواية ، وقياسا ، وتمييزا ، وليس معرفة عن طريق السماع والتقليد « فذلك الوهن الضعيف ، لا يلبث أن يشك ويدخله التحريف ، والتصحيف ، إذ لم يبن على أصل ولا نقل عن فهم » [2] .

ومثل هذا أوجب على طالب القرآن ، أليس طالب اليوم هو أستاذ الغد ؟

ومن ثم فقد ربط بين العلوم اللغوية والقرآنية ودعا إلى معرفتها وفهمها فهما يتسم بالنضج والتمييز .

وقد عنى مكى فى جانبه النظرى بالتنبيه على أهمية أصوات الكلام ، وعلى ما لهذه

---

(١) الرعاية ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٩ .

الأصوات من وظائف حيوية ، فى فنون القول ، وأفانين اللسان ، فضلا عن كونها تمثل الدرر الصغيرة التى نظم منها أصدق حديث ، وأسمى كتاب يقول رحمه الله بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله « أنزله [القرآن] بلسان العرب المبين ، ونظمه من الحروف التى فى حكمتها عبرة للمعتبرين ، ودلالة للمتوسمين إذ قد استولت مع قلتها ، على جميع لغات العرب مع اتساعها ، اعتبارا فى الخطب ، والكلام ، والأشعار ، ورتب تبارك وتعالى لها مخارج تخرج منها عند النطق بها ، من آخر الصدر الأعلى وما يليه من الحلق ، والفم الى أطراف الشفتين ، والى الخياشيم ، لا يخرج حرف من مخرج غير مخرجه إلا بتغير لفظه ، ولا يتعدى كل حرف عند النطق به عن مخرجه ورتبته التى أنزله الله فيها ... » [1] ويستمر رحمه الله فيقول بعد حديث عن قويها ، وضعيفها ، ومتشابهها ، ومختلفها ، وسكونها وحركتها ، وأن فى ذلك كله حكمة منه تعالى وقدرة ولطف تدبير : « وانى لما رأيت هذه الحكمة البديعة ، والقدرة العظيمة ، فى هذه الحروف التى نظمت ألفاظ كتاب الله جل ذكره ، ووقفت على تصرفها فى مخارجها ، وترتيبها عند خروج الصوت بها ، واختلاف صفاتها ، وكثرة ألقابها ، ورأيت شرح هذا وبيانه متفرقا فى كتب المتقدمين والمتأخرين ، غير مشروح للطالبين ، قويت نيتى فى تأليف هذا الكتاب وجمعه ، فى تفسير الحروف ، ومخارجها ، وصفاتها ، وألقابها ، وبيان قويها وضعيفها ، واتصال بعضها ببعض ، ومناسبة بعضها لبعض ، ومباينة بعضها لبعض ، ليكون الوقوف على معرفة ذلك عبرة فى لطف قدرة الله الكريم ، وعونا لأهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه ، وإحكام النطق به ، وإعطاء كل حرف حقه من صفته ، وإخراجه من مخرجه .. » [2] ثم يشير إلى أثر ما ذكره فيقول « باقيا ذلك على مرور الأزمان وتعاقب الأعصار ، ينتفع به المقرىء والقارىء ، والمبتدى والمنتهى ، يتذكر به أهل الفهم والدراية ، ويتنبه به أهل الغفلة والجهالة » [3] .

ولا يكتفى مكى بهذا فى بيان أهمية أصوات اللغة والكلام ، بل تراه ينبه عليه فى مواضع كثيرة ، ويثير الاهتمام به فى مناسبات عديدة ، وكأنه كان يحس بأنه سيأتى على الإنسان المسلم

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩، ٤٠ .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٠، ٤١ .
(٣) المرجع نفسه ص ٤١ .

حين من الدهر ، ينسى أمر هذه الأصوات ، ويظن إن كان مشغولا بعلم أنه من نوافل القول وفضوله ، أو أنه مما ألقت به ريح عقيم قادمة من الغرب .

يقول مكى عن الحروف « فهذه التسعة والعشرون الحروف المذكورة عظيمة القدر ، جليلة الخطر ، لأن بها أفهمنا الله كتبه كلها ، وبها يعرف التوحيد ويفهم ، وبها افتتح الله عامة السور ، وبها أقسم ، وبها تزلت أسماؤه وصفاته ، وبها قامت حجة الله على خلقه ، وبها تعقل الأشياء ، وتفهم الفرائض والأحكام وغير ذلك من شرفها كثير لا يحصى .. » [1] .

ويشير رحمه الله إلى أهمية الحركات فيقول : « وأيضا فإن الكلام إنما جيء به لتفهم المعانى التى فى نفس المتكلم ، وبالحركات واختلافها تفهم المعانى ، فهى منوطة بالكلام ، مرتبطة به ، ونيطت به إذ بها يفرق بين المعانى التى من أجلها جيء بالكلام .. » [2] .

وإذا كانت الأصوات بهذه الأهمية ، فما الذى يريده مكى من قارىء القرآن ، ومن كل ناطق بلغته بالنسبة لها ؟

إن مكيا يريد من كل مشتغل بالعربية والقرآن ، أن يعرف عنها ما عرفه هو وما وصل إلى علمه .

ومن ثم فقد تعرض فى بحثه ، لأصوات الكلام بصورة عامة ، ولم يقتصر فى معالجته على جانبها القرآنى ، وقد صرح بهذا فى عنوان كتابه كما سبق ذكره ، وفى مقدمته ، وفى عناوين فصوله التى كان أولها « باب معرفة الحروف التى يؤلف منها الكلام وعللها » [3] وفى ثنايا هذه الفصول حيث يتردد لفظ « الكلام » أو « كلام العرب » كثيرا كقوله فى الحديث عن الهمزة « فلما لم تثبت الهمزة فى كلام العرب على لفظ واحد كما ثبتت كل الحروف ، وغيرت هذا التغيير المذكور ، دون سائر الحروف لم يكن لها صورة ثابتة في الخط .. » [4] وقوله : فى باب ما تضمنه تأليف الكلام وعلله : الكلام كله ألف من أربعة أشياء .. » [5] .

ومع هذا فقد كان مكى على وعى كامل بمستويات الأداء ، وبما يمكن أن ينشأ من فروق

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٣ .
(٢) الرعاية ص ٨٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٢ .
(٤) المرجع نفسه ص ٧٤ .
(٥) المرجع نفسه ص ٧٦ .

بين المستوى القرآنى ، والمستوى الكلامى العام ، فكان ينبه إلى هذه الفروق كقوله عن الحرف السادس بعد التسعة والعشرين « وأما الحرف السادس فهو حرف لم يستعمل فى القرآن ، وهو حرف بين الشين والجيم ، وهى لغة لبعض العرب .. » [1] وقوله عن الأحرف الزائدة عن الخمسة والثلاثين : « وبعض العرب يزيد عند الاضطرار إلى هذه الخمسة والثلاثين حرفا سبعة أحرف ، وهى قليلة الاستعمال فى الكلام ولا تستعمل فى القرآن ، وهى شاذة .. » [2] .

ومن ناحية أخرى فقد كان ينبه كثيرا على أن ما يتحدث عنه يرد أو يستعمل فى القرآن والكلام كقوله عن الهمزة « لأن الهمزة حرف ثقيل فغيرته العرب لثقله ، وتصرفت فيه ما لم تتصرف فى غيره من الحروف ، فأتت به على سبعة أوجه مستعملة فى القرآن والكلام ... » [3] .

وفى هذا كله ما يدل على حكمة مكى ، ونفاذ إدراكه للعلاقة القوية ، بين معرفة أصوات الكلام ، ونطق أصوات القرآن ، وأنه يرى فى تلك المعرفة أهم أساس فى تحقيق هذا النطق وتجويده .

وقد دفعه هذا إلى استقصاء البحث فى تلك الأصوات الكلامية ، والتعرض لكل ما دار حولها تقريبا من أفكار ونظريات ، مؤمنا كما كررنا بأن معرفة كل هذا يكاد يبلغ حد الضرورة لطالب القرآن الكريم .

تعرض مكى لعدد الحروف فى العربية : المشهور منها وغير المشهور ، والمستعمل بكثرة والمستعمل بقلة .. وذكر علة تسميتها بالحروف ، وبين أهميتها ، وأشار إلى صورها الخطية ... [4] .

ثم تناول فكرة تأليف الكلام من الحروف الساكنة ، والحروف المتحركة ، مبينا أن الحروف المتحركة أكثر فى كلام العرب ، كما أن الحركة اكثر من السكون ، معلّلا لذلك بما يمكن أن

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٨ .
(٢) المرجع نفسه ص ٨٩ .
(٣) المرجع نفسه ص ٧٤ .
(٤) انظر : الرعاية ص ٧٢ وما بعدها .

يتخذ أساسا لدراسة التركيب المقطعي ، والاستفادة منه في الوصول إلى النظام المقطعي للعربية ، والاستعانة بمعرفته في تعليم لغتنا وتيسير قراءتها وضبطها ..[1] .

ولم تفته قضية الخلاف بين اللغويين وغيرهم ، حول أسبقية الحروف والحركات ، فناقشها بدقة وأمانة ، مرجحا في النهاية رأى من ذهب إلى « أن الحروف والحركات لم يسبق أحدهما الآخر في الاستعمال بل استعملا معا كالجسم والعرض اللذين لم يسبق أحدهما الآخر .. »[2] قال : ومن الدليل على صحة هذا القول أن الكلام الذى جيء به للإفهام مبنى من الحروف ، والحروف إن لم تكن في أول أمرها متحركة فهي ساكنة ، والساكن لا يمكن أن يبتدأ به ، ولا يمكن أن يتصل به ساكن آخر ، في سرد الكلام ، لا فاصل بينهما ، فلا بد ضرورة من كون حركة مع الحرف ، لا يتقدم أحدهما الآخر ، إذ لا يمكن وجود حركة على غير حرف ، وأيضا فإن الكلام إنما جيء به لتفهم المعاني ، التي في نفس المتكلم ، وبالحركات واختلافها تفهم المعاني ، فهي منوطة بالكلام مرتبة به (ونيطت به) إذ يفرق بين المعاني التي من أجلها جيء بالكلام وهذا القول أولى من غيره »[3] .

وهكذا نراه في حديثه عن هذه القضية التي أثيرت من قبله[4] يعنى ببيان وظيفة كل من صنفى الأصوات ، ويشير إلى التسوية بينهما ، وتعادلها في الاستعمال والكلام .

ولا تمر هذه القضية ، حتى تثير مسألة العلاقة بين حروف المد واللين والحركات الثلاث ، فتناقش هي الأخرى ، ويرجح فيها قول بعض أهل النظر باستقلال كل منهما عن الآخر و « ليست هذه الحروف مأخوذة من الحركات ، ولا الحركات مأخوذة من الحروف ، إذ لم يسبق أحد الصنفين الآخر على ما قدمنا .. »[5] .

ويتعرض مكى بعد ذلك لقضية تتصل بعلم الأصوات العام ، فيذكر أن الحروف التسعة والعشرين المشهورة قد اشتركت في استعمالها لغات العرب ولغات العجم ، إلا الظاء فإنها للعرب خاصة ، وإلا الحاء فقد قيل انها أيضا مما انفردت به العرب ، ثم ينقل عن

---

(١) انظر : المرجع نفسه ص ٧٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٧ وما بعدها .

(٣) انظر : المرجع نفسه ص ٧٩ ، ٨٠

(٤) انظر : سر صناعة الإعراب ص ٣٢ وما بعدها .

(٥) الرعاية ص ٨٤ وانظر المرجع السابق ص ١٩ وما بعدها .

الأصمعى عدم اشتمال الرومية والفارسية على الثاء ، وعدم اشتمال السريانية على الذال ، ثم يبين أن هناك ستة أحرف انفردت العرب بكثرة استعمالها ، وهى قليلة أو نادرة فى لغات بعض العجم ، ولا توجد البتة فى لغات كثير منهم ، وهى العين ، والصاد ، والضاد ، والقاف ، والظاء ، والثاء ، وانفردت العرب أيضا باستعمال الهمزة متوسطة ومتطرفة ولم يستعمل ذلك العجم إلا فى أول الكلام .. » [1] .

ومهما يقال حول هذه المعلومات التى أثارتها هذه القضية ، فإن قيمتها الحقيقية تكمن فيما توحى به ، وتوجه إليه من ضرورة العناية فى دراسة الأصوات وتعليمها بمنهج المقارنة والتقابل ، ليكون الدارس والمتعلم على وعى بالنظم الصوتية فى اللغات ذات العلاقة بلغته على الأقل .

ولما كان مكى يرى أن من الضرورى لطالب الأصوات والتجويد بلوغ درجة التميز ، وإدراك العلاقات بين أصوات الكلام ، ويرى أن علماء اللغة قد أدركوا طبيعة هذه الأصوات ، وتمكنوا من تقسيمها وتصنيفها ، وتمييز كل قسم أو مجموعة منها بالمصطلح أو اللقب الذى يدل عليها ، ويشير الى ما تميزت به عن غيرها فقد تتبع واستقصى صفات الأصوات وما أطلق عليها من مصطلحات وألقاب « وهذه الصفات والألقاب إنما هى من طبائع فى الحروف خلقها الله عز وجل على ذلك فسميت تلك الطبائع التى فيها بما نذكر من الألقاب اصطلاحا ولقبت به اتفاقا ، مع ما يسعد ذلك من معنى الاشتقاق الذى نذكره إن شاء الله تعالى » [2] .

وهنا يذكر الحروف المجهورة ، والمهموسة ، والحروف الشديدة ، والرخوة ، والحروف الزوائد ، والأصلية ، وحروف الإبدال ، وحروف الإطباق .. الى آخر ذلك [3] وحتى يصل الى ذكر بعض الصفات غير المشهورة مثل الحروف التى وصفها بالمشربة ويقال لها المخالطة [4]

---

(١) انظر : الرعاية ص ٩٠ ويلاحظ أنه ذكر أن الظاء للعرب خاصة ثم عاد فذكرها بين ما يكثر استعماله عند العرب ، ويقل فى لغات بعض العجم وأظن أن هناك خطأ يحتاج إلى مزيد من التحقيق .

(٢) المرجع السابق ص ٩١ وما بعدها .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٩٢ وما بعدها .

(٤) المرجع نفسه ص ١٠٥ وما بعدها .

والحرف الجرسى وهو الهمزة [1] ، والحرف الراجع [2] وهو الميم الساكنة ، ثم يكمل الألقاب أربعة وأربعين ، بذكر عشرة ألقاب أخرى للحروف « لقبها بذلك الخليل بن أحمد فى أول كتاب العين ، جعل ألقابها عشرة مشتقة من أسماء المواضع التى تخرج منها الحروف .. » [3] .

وهكذا تراه يعلل لكل لقب ، ويشرح كل صفة ، ويبين الحروف التى تشترك فيها ، ويدعو فى أثناء شرحه إلى الإفادة من هذه المعارف ، ويذكر أكثر من مرة أهمية تلك الصفات ، وأثرها فى تحديد الأصوات ، والتمييز بينها ، مما يدل على فهم جيد لطبيعة الأصوات اللغوية .

يقول - رحمه الله - « فاعرف هذه الصفات والألقاب ، واختلاف معانيها وأحكامها ، وطباعها فلولا اختلاف صفات الحروف ، ومخارجها ، وأحكامها ، وطباعها التى خلقها الله - جل ذكره - عليها ما فهم الكلام ، ولا علم معنى الخطاب ، ولكانت الأصوات ممتدة لا تفهم من مخرج واحد وعلى صفة واحدة كأصوات البهائم » [4] .

ثم لا يترك مكى هذا الموضوع حتى يبين لنا الصفات الأساسية أو الجوهرية التى تتايز بها الأصوات ، فينقل عن المازنى قوله : إن الذى فصل بين الحروف التى ألف منها الكلام سبعة أشياء : الجهر ، والهمس ، والشدة ، والإرخاء ، والإطباق ، والمد ، واللين قال : لأنك إذا جهرت ، أو همست ، أو أطبقت ، أو شددت ، أومددت ، أو لينت ، اختلفت أصوات الحروف التى من مخرج واحد قال : فعند ذلك يأتلف الكلام ويفهم المراد ... » [5]

وبهذا يكون مكى قد ربط بين صفات الأصوات ومعانى الكلام مقدرا أن الاختلاف في الصفات والمخارج ، يقابله اختلاف فى المعنى ، ومن ثم كان قيام أصوات اللغة بوظيفتها ، وحملها لمعانى الكلام .

وقد هدف مكى من وراء ذلك إلى لفت نظر القارىء أو المتكلم إلى أهمية المحافظة ، أو ما سماه هو بالتحفظ على أصوات الكلام ، خشيه ضياع المعنى وذهاب الوظيفة المقصودة من اللغة أو الكلام ، وحتى يؤكد على أهمية ما يسمى حديثا بالمهارات الصوتية التى يعدها المحدثون

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٨ .
(٢) المرجع نفسه ص ١١٢ .
(٣) المرجع نفسه ص ١١٣ وما بعدها .
(٤) المرجع نفسه ص ١١٦ وما بعدها .
(٥) المرجع نفسه ص ١١٧ .

اليوم أولى المهارات التى يجب أن يكتسبها المتعلم « فالمهارة الأولية هى الصوتية بمعنى أن الطالب لا يكتسب المهارات الأخرى بصفة كاملة قبل الوصول إلى مهارة آلية فى مستوى الصوتيات فيستطيع حينئذ أن ينتبه إلى الرسالة التى من أجل نقلها الى المستمع يتكلم الإنسان » [1] .

تلك أهم القضايا التى تناولها مكى ، فيما يمكن أن نسميه بالبحث النظرى ، أو المعرفة العامة التى رأى مكى أهميتها ، وضرورتها ، لكل من أراد تجويد القرآن ، وتلاوته ، وأداءه على وجه سليم .

ومن الواضح أن مكيا أراد بهذه المعارف الواسعة تمكين القارىء مما وصفه بالدراية ، وفضله على الرواية ، ومن ثم فقد كان ينبه مع كل قضية تقريبا إلى أهمية معرفتها وإدراكها ، ومن صور ذلك قوله فى الحديث عن صفات الحروف : « فافهم هذا لتعطى كل حرف فى قراءتك حقه من القوة ، ولتتحفظ ببيان الضعيف فى قراءتك ، فالجهر ، والشدة ، والصفير ، والإطباق ، والاستعلاء ، من علامات قوة الحرف ، والهمس ، والرخاوة ، والخفاء من علامات ضعف الحرف فاعرف هذه المقدمة » [2]

ولعل أروع ما قاله فى هذا وأشمله ما ذكره قريبا من نهاية بحثه فقطع به قول كل قائل ، ودفع به شبهه كل مشتبه ، ولم يبق لمعترض حجة يحتمى بها أو ينادى بترديدها .

« قال أبو محمد : والمقرىء إلى جميع ما ذكرناه فى كتابنا هذا أحوج من القارىء ، لأنه إذا علمه علّمه ، وإذا لم يعلّمه لم يعلّمه ، فيستوى فى الجهل بالصواب فى ذلك القارىء والمقرىء، ويضل القارىء بضلال المقرىء ، فلا فضل لأحدهما على الآخر » .

« فمعرفة ما ذكرنا لا يسع من انتصب للإقراء جهله ، وبه تكمل حاله ، وتزيد فائدة القارىء الطالب ، ويلحق بالمقرىء . وليس قول المقرىء والقارىء : أنا أقرأ بطبعى ، وأجد الصواب بعادتى فى القراءة لهذه الحروف من غير أن أعرف شيئا مما ذكرته ، بل ذلك نقص ظاهر ، فيهما لأن من كانت هذه حجته ، يصيب ولا يدرى ، ويخطىء ولا يدرى ، إذ علمه واعتماده على طبعه وعادة لسانه يمضى معه أين ما مضى به من اللفظ ، ويذهب معه أينما ذهب . ولا يبنى على أصل ، ولا يقرأ على علم ، ولا يقرىء عن فهم » .

---

(١) ستوتزر : نموذجان لتعليم مسائل والكتابة باللغة العربية (انظر قائمة المراجع) .

(٢) الرعاية ص ٩٣ وما بعدها . وانظر ص ٩٥ منه .

« فما أقربه من أن يذهب عنه طبعه أو تتغير عليه عادته وتستحيل عليه طريقته ، إذ هو بمنزلة من يمشي في ظلام ، في طريق مشتبه ، فالخطأ والزلل منه قريب ، والآخر بمنزلة من يمشي على طريق واضح ، معه ضياء لأنه يبنى على أصل ، وينقل عن فهم ، ويلفظ عن فرع مستقيم ، وعلة واضحة ، فالخطأ منه بعيد » .

« فلا يرضين امرؤ لنفسه في كتاب الله ـ جل ذكره ـ وتجويد ألفاظه إلا بأعلى الأمور وأسلمها من الخطأ والزلل ، والله الموفق للصواب » [1]

ويهمنا أن ننبه قبل الانتقال من هذا الموضوع إلى أن مكيا قد اعتمد في تحصيل تلك المادة النظرية الواسعة ، على جهود السابقين من علماء العربية والقراءات ، وقد صرح هو نفسه بذلك في مقدمته حيث قال « ورأيت شرح هذا وبيانه متفرقا في كتب المتقدمين والمتأخرين ، غير مشروح للطالبين .. » [2] كما صرح كثيرا في ثنايا عرضه للمسائل بأسماء العلماء الذين تناولوا هذه القضايا أو بصفاتهم .

ومن الواضح أن أكثر تلك الأسماء ترددا عنده : الخليل بن أحمد الفراهيدى ، مما يدل على أن مكيا قد أخذ علم الأصوات من منبعه الحقيقي فالخليل ـ بدون شك ـ هو رائد البحث الصوتي عند المسلمين ، ومما هو معروف بين أهل العلم أن معظم القضايا والمسائل الصوتية ـ إن لم يكن كلها ـ ترجع إلى جهود هذا العبقرى الكبير .

ويلي الخليل في مصادر مكى تلميذه النجيب « سيبويه » وحق له أن يكون المصدر الثاني . وكيف لا ؟ وهو صاحب الكتاب ، الذى تضمن كل مبادىء الثقافة اللغوية عند العرب .

وتتردد بعد ذلك أسماء أخرى كثيرة مثل الأصمعي سنة ٢١٣ هـ والأخفش سنة ٢١٠ هـ وابن دريد سنة ٣٢١ هـ والمازني سنة ٢٤٩ هـ والجرمي سنة ٢٢٥ وابن كيسان سنة ٢٩٩ هـ من اللغويين ومثل عاصم سنة ١٢٧ هـ ونافع سنة ١٦٩ هـ وأبي بكر بن عياش سنة ١٩٣ هـ وأبي بكر بن مجاهد سنة ٣٢٤ هـ من القراء وعلماء القراءات .

وهناك آخرون لم يصرح الشيخ بأسمائهم مكتفيا بالكناية عنهم بمثل : علماء المقرئين

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠ وما بعدها .

ـ النحويون ـ أهل النظر ـ بعض العلماء ـ أهل العلم باللسان[1]...

ومع هذا فلم يكن مكى مجرد ناقل للعلم ـ وكفى بنقل العلم شرفا ـ وإنما كان مسهابفكره ، مدققا بنظره ، مرجحا بعقله ، مضيفا بتجاربه [2] ، فظهرت شخصيته واضحة فى كل مسألة أو قضية تناولها ، وخاصة فى حرصه على التعليل لكل ما يذكر ، حتى يطمئن قارئه ، ويحس أنه على أرض صلبة من الحقيقة « وبعض القوم يسقط بين بينا » .

وفى لون آخر مما فتح الله به على مكى ، ترى ما يؤيد كلامنا هذا ، ويزيده وضوحا فلنواصل الرحلة معه ، عسى أن يهدينا ربنا سواء السبيل .

أحس مكى بعد أن تزود من أحوال الحروف والحركات ، واطمأن إلى تلك الذخيرة من المعرفة النظرية عن أصوات العربية والقرآن ، أنه صار قريبا من لحظة الفتح ، وساعة الإبداع ، وميدان التفرد ، وأن جنى كفاحه قد صار دانيا ، فما عليه ألا أن يقدح خاطره ويوهج فكرة ليحول تلك المعرفة النظرية إلى مناهج عملية .. تتعانق فيها القاعدة بالتطبيق ، والفكرة بالتنفيذ ، والنمط بالمثال ، والمشكلة بالحل ، فإذا بنا حقيقة أمام مذهب فى الدرس الصوتى والتجويدى لم يسبق إليه أبو محمد ولم يطأ واديه قبله إنسان ...

قال رحمه الله « وإذ قد ذكرنا صفات الحروف وطباعها وألقابها فلنذكر الآن مخارج الحروف ، حرفا بعد حرف ، ونذكر مع كل حرف ما يليق به من ألفاظ كتاب الله تعالى ، مما فى اللفظ به إشكال ، أو فيه بعض صعوبة على اللسان ، فيتحفظ القارىء منه عند قراءته ، ويأخذ نفسه بالتجويد فيه ، وبإعطائه حقه ، وباخراجه من مخرجه ، والله المستعان على ذلك كله .. » [3] .

وأعانه الله فوفى بعهده ، وجعل لكل حرف على الترتيب الآتى بابا :

الهمزة ـ الهاء ـ الألف ـ العين ـ الحاء ـ الخاء ـ الغين ـ القاف ـ الكاف ـ الشين ـ الجيم ـ الياء ـ الضاد ـ اللام ـ النون ـ الراء ـ الطاء ـ الدال ـ التاء ـ الزاى ـ السين ـ الصاد ـ الظاء ـ الثاء ـ الذال ـ الفاء ـ الباء ـ الميم ـ الواو .

---

(١) انظر الرعاية ص ٦٩، ص ٧٧، ص ٨١، ص ٨٤ ، ص ١١٠ ، ص ١١٢ ، ص ١٦٣ .

(٢) أنظر مثلا حديثه عن النون الخفيفة أو الغنة ص ٢١٤ وما بعدها وانظر ما سيأتى فى الحديث عن التطبيق والتدريب .

(٣) الرعاية ص ١١٧ وما بعدها .

وزاد الغنة فجعل لها بابا ، ثم جعل للمشددات من تلك الحروف بابا ، وآخر للوقف على المشدد منها ، ثم جعل لأحكام النون الساكنة والتنوين بابا ، ورأى أن يتعرض لقضية اختلافهم فى المخارج ، حتى يكون عمله كاملا ، فجعل لهذه القضية بابا بين باب الغنة وباب المشددات .

هكذا كان نظام هذا الجزء من بحثه مكتوبا .

لكن كيف كان نظام هذا الجزء من بحثه فكرا ومنهجا ؟

لقد بدأ مكى بتحديد النمط ، والصورة المثالية لكل صوت من الأصوات السابقة ، رغبة فى تمييز كل صوت من الآخر من جهة ، وفى توضيح العلاقة بين كل صوت منها والآخر من جهة ثانية .

وكان على وعى كامل ، عندما جعل مقياسه فى هذين الأمرين قائما على الأساسين المعروفين فى علم الأصوات : الأساس الفسيولوجى ، والأساس السمعى ، وما يتبعهما من مخارج الأصوات وصفاتها « وأعلم أنه لولا اختلاف الصفات فى الحروف ، لم يفرق فى السمع بين أحرف من مخرج واحد ، ولولا اختلاف المخارج ، لم يفرق فى السمع بين حرفين وحروف على صفة واحدة ، وقد تقدم منه جملة فافهمه فعليه مدار علم مخارج الحروف وصفاتها ، وقوتها ، وضعفها ، وتقاربها وتباعدها ، وإدغام بعضها فى بعض »[1] .

ومن ثم كان انطلاقة فى تحديد النطق المثالى لكل صوت ، والنمط الذى يجب أن يستقر فى ذهن قارئه ، ليقيس عليه ، ويفرع عنه ، ويميز به - يبدأ من وصفه فسيولوجيا وتحديد الموضع الذى يخرج منه ، ثم بيان نصيبه من الصفات ، التى يتم على أساسها تحديد درجته من القوة أو الضعف ، بحسب المفهوم العربى لها .

وفى أثناء ذلك ، يعرض مكى مع كل صوت للأصوات الأخرى التى تشاركه فى المخرج ، أو فى الصفة ، والتى يحتمل التباسها به ، وهنا يركز على تلك الفروق وجوانب المخالفة التى تجعل من كل صوت ، وحدة مستقلة فى النظام اللغوى فيقول على سبيل المثال « ولولا الجهر ، والاستعلاء اللذان فى القاف لكانت كافا ، وكذلك لولا الهمس ، والتسفل اللذان فى

---

(١) المرجع السابق ص ١٩١ وما بعدها .

الكاف لكانت قافا لقرب مخرجها ، ولذلك لم يأتلف القاف والكاف فى كلمة إلا بحاجز بينهما ، ولا تجد قافا تلاصق كافا من أصل كلمة البتة » [1] .

لكن هذا الصوت الذى تم تحديد مثاله ونمطه ، لا يستعمل فى الواقع وحده أو مفردا ، وإنما يستعمل مع غيره من الأصوات فى الوحدات الكلامية الكبرى ويتعرض بسبب ذلك لتغيرات ، وظواهر سياقية عديدة ، تحددها غالبا علاقة هذا الصوت بالأصوات الأخرى ، التى تجاوره أو تقاربه ، ولذا فقد كان من الضرورى أن يبين مكى بعض ألوان هذه العلاقات « فالحروف تكون من مخرج واحد وتختلف صفاتها فيختلف لذلك ما يقع فى السمع من كل حرف .

« وهذا تقارب بين الحروف من جهة المخرج ، وتباين من جهة الصفات » .

« وتكون الحروف من مخرجين ، وهى مختلفة الصفات ، فهذا غاية التباين إذ قد اختلفت فى المخارج والصفات » .

« وتكون من مخرجين متفقة الصفات ، فهذا أيضا تقارب بين الحروف من جهة الصفات ، وتباين من جهة المخرج » .

« فافهم هذا فعليه مدار الحروف كلها » .

« ولا تجد أحرفا من مخرج واحد . متفقة الصفات البتة . لأن ذلك يوجب اتفاقها فى السمع ، فلا تفيد فائدة فتصير كأصوات البهائم التى لا اختلاف فى مخارجها . ولا فى صفاتها ، فلا بد أن تختلف الحروف إما فى المخارج وإما فى الصفات » [2] .

كما كان يشير كثيرا إلى بعض ما يترتب على هذه العلاقات من تغيرات ، أو ظواهر سياقية ، ويبين ما لها من آثار فى سهولة النطق أو صعوبته ، وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من صور نطقية مقبولة أو غير مقبولة .

ورأى مكى أن هذه الحروف فى حاجة إلى مقياس نطقى ، ومعيار حى ، يتصوره الناطق ، فلا يحيد عنه ، ويتمثله فى أدائه فلا يخطىء « فإنما عيار هذه الحروف فى اللفظ أن يلفظ بها كما يلفظ بها إذا حكيت من الحروف إلا الراء واللام وقد ذكرناهما .. » [3] .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤٧ .

(٢) الرعاية ص ١٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٣ .

وبذلك كله يكون مكى قد قدم النمط الصوتى ، أو العيار ، أو الميزان الذى عبر عنه السخاوى بقوله : [1] .

للحرف ميزان فلاتك طاغيا فيه ولاتك مخسر الميزان

وأشار إليه الخاقانى من قبل بقوله : [2] .

زن الحرف لا تخرجه عن حد وزنه فوزن حروف الذكر من أفضل البر

ولكن أى صورة نطقية اعتمدها الشيخ ، فى وصفه ، وتنميطه ، وتعليمه ، وللغة لهجات ، وللقرآن الكريم أصول وقراءات ، تتحقق مظاهر الاختلاف بينها - غالبا - فى نطق الأصوات ، وما يعتريها من ظواهر سياقية ، كالإظهار ، والإدغام ، والإخفاء ، والإقلاب ، وما إليها مما يعبر عنه بالأصول كما ذكر ابن الجزرى [3] ؟

الواقع أن مكيا كان رائعا فى معالجته لهذه المسألة ، وكان أستاذا كبيرا حقا ، عندما ركز على النمط الموحد ، والصورة المتفق عليها بين أكثرهم .

وقد أشار إلى هذا من أول الأمر فقال فى مقدمته : « ولست أذكر فى هذا الكتاب إلا ما لا اختلاف فيه بين اكثر القراء ، فيجب على كل من قرأ بأى حرف كان من السبعة أن يأخذ نفسه ، بتحقيق اللفظ ، وتجويده ، وإعطائه حقه على ما نذكره مع كل حرف فى هذا الكتاب .. » [4] .

وكرر هذا المعنى كثيرا ، فقال عن صور نطق الهمزة « وقد تقدم ذكر أصول القراء ، واختلافهم فى الهمز ، وتليينه ، وحذفه ، وبدله ، وتحقيقه ، وغير ذلك من أحكامه فى غير هذا الكتاب ، فلا حاجة بنا إلى ذكر ذلك ، وكذلك ما شابهه ، فليس هذا كتاب اختلاف ، وإنما هو كتاب تجويد ألفاظ ، ووقوف على حقائق الكلام ، وإعطاء اللفظ حقه ، ومعرفة أحكام الحروف التى ينشأ الكلام منها ، مما لا اختلاف فى أكثره .. » [5] .

وقال فى باب الدال « وأعلم أيها الناظر فى هذا الكتاب أن أكثر ما نحض على بيانه ،

---

(١) انظر : محمد مكى نصر : نهاية القول المفيد ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢١ .
(٣) انظر : النشر جـ ١ ص ٢٧ .
(٤) الرعاية ص ٤٢ .
(٥) المرجع السابق ص ١٢٨ .

والتحفظ به ، ليس بين القراء فيه اختلاف ، فإنه على ما بينا إلا الشيء اليسير ، ففيه اختلاف كالمثلين فى الإدغام لأبى عمرو ونحو ذلك » [1] .

وقد علل هذا فى باب الذال فقال : « وقد ذكرنا فى غير هذا الكتاب ما تدغم فيه الذال وغيرها من الحروف ، مما اختلف القراء فيه ، فاغنى عن ذكر ذلك فى هذا الكتاب ، فتلك الكتب كتب تحفظ منها الرواية ، المختلف فيها ، وهذا الكتاب يحكم فيه لفظ التلاوة ، التى لا خلاف فيها ، فتلك كتب رواية ، وهذا كتاب دراية فافهم هذا » [2] .

وإلى مثل هذا أشار فى حديثه عن إدغام الباء وإظهارها وفى مواضع أخرى [3] .

وقد أكد على اتباع ذلك النمط بصورة اكثر ، عندما تكون هناك صورة قريبة منه ، تنتمى إلى لغة أخرى ، وتؤيدها قراءة مغايرة .

يقول : فإذا وقعت الكاف فى موضع يجوز أن تبدل منها قاف فى بعض اللغات ، وجب أن تبين الكاف ، لئلا تخرج من لغة إلى لغة أخرى ، وذلك نحو قولك « إذا السماء كشطت » ألا ترى أنه فى حرف ابن مسعود قشطت بالقاف فالبيان لازم » [4] .

كذلك عندما تكون هناك صورة نطقية أخرى عند العرب لكنها لم ترد فى القراءة يقول « فإذا وقعت الواو مضمومة أو مكسورة ، وجب بيانها ، وبيان حركتها ، لأنها إذا ثقلت الحركة عليها سارعت إلى أن تبدل منها همزة ، وقد يفعله كثير من العرب لكن القراءة سنة ... » [5] .

وهكذا يفرق الشيخ بين منهج القراءات ، ومنهج التجويد ، فالقراءات تؤخذ بالرواية ، وعلى القارىء أن يلتزم بكل صورة نطقية تلقاها ، وأن يعنى باختلاف تلك الصور فى روايته ، لأنه أساس هام فى التمييز بين القراءات المختلفة ، أما إذا كان الهدف تجويد اللفظ ، وأحكام النطق ، فلنترك هذه الاختلافات جانبا ، ولنتركز العناية على تلك الأسس العامة ، والمبادىء المشتركة والتى هى بالطبع مقرة ومقبولة كلها أو أكثرها عند الجميع ، أو عند الأكثر ، كما هو

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٩ وما بعدها .

(٣) انظر : المرجع نفسه ص ٢٠٥ وصفحات ١٣٤، ١٣٥، ١٦٤، ١٧١، ٢٠٠ .

(٤) الرعاية ص ١٤٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٢١٠ .

الشأن فى كل النظم اللغوية .

ومما لا شك فيه أن هذه الطريقة تحقق - فضلا عن مسايرتها لطبيعة النظام التنميطى - تيسيرا كبيرا ، فى عملية التلقى والتعلم ، وتهيىء للمعلم والمتعلم السير بخطوات سريعة نحو الهدف المنشود .

إن منهج الدراية الذى اختاره مكى للدراسة التجويدية ، يقتضى وجود المثال والنمط الواحد ، الذى يعتمده الناطق أصلا ، يقيس عليه ، ويفرع عنه وينظر به ، فيحقق النطق السليم والأداء الجيد .

ويمكننا أن نتصور مدى الاضطراب ، والتعويق ، الذى يصاب به الناطق أو المتعلم ، إذا تعددت أمام ناظره الصور ، واختلفت فى ذهنه المثل ، ولم يستطع تحديد مثاله الإمام ، ونمطه المتبع ، وإننا لنعانى من هذا أكبر عناء فى عصرنا هذا ، عندما يقع إخواننا وأبناؤنا فى هذا المضطرب اللغوى ، فى جميع المستويات اللغوية ، وخاصة ما يتصل منها بالجانب الصوتى كما أشرنا إليه فى بحث سابق [1] .

وقد رأى مكى أن يكون التوسط سبيل ذلك النمط ، إذا ما كان للصوت وجهان متقابلان من صفات النطق ، يمكن للقارىء أن يميل إلى أحدهما ، وحذر القارىء من هذا الميل ، إلا إذا كان ذلك قد ورد فى رواية ، وأرادها القارىء ، فله بالطبع ذلك ، لكن معالجة مثل هذا لا تدخل فى بحثه هنا كما أشار إليه سابقا .

ولعل حديثه عن الألف يوضح لنا هذه الفكرة ، إذ يقول « فيجب على القارىء أن يعرف أحوالها ، وصفاتها ، وأن يلفظ بها حيث وقعت غير مفخمة ، ولا ممالة ، ولا يميلها إلا برواية ، ولا يغلظ اللفظ بها إلا برواية ، ويلزم فى لفظها التوسط أبدا ، حتى ترده الرواية إلى إمالة أو تغليظ ، وهذا مذكور فى كتب اختلاف القراء ، فى الإمالة والفتح وما هو بين اللفظين » [2] .

كذلك كان مكى يختار الحسن من الوجوه ، ويفر من القبيح ، وإن أخذ به قوم يقول عن

---

(١) انظر : عبدالله ربيع محمود : من مشكلاتنا الصوتية فى نطق العربية الفصحى وتعليمها مجلة كلية اللغة العربية : العدد الثامن ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م الرياض .

(٢) الرعاية : ص ١٣٥

بعض أحوال الهاء « وإنما وقع ذلك فى هاء السكت نحو قوله « ماليه هلك عنى » الاختيار ألا تدغم الهاء الأولى الساكنة فى الثانية ، وأن ننوى عليها الوقف ، وقد أخذ قوم فى ذلك بالإدغام والتشديد ، وليس بمختار لأنه يصير قد أثبت هاء السكت فى الوصل وذلك قبيح » [1] .

وقد ذكر مكى أن هذه الحالة لا ثانية لها فى القرآن [2] .

وإذا كان مكى قد حدد النمط أو الصورة المثالية ، ورسم لذلك الحدود : وصفا ، وعلاقة ، ونطقا ، وإجماعا ، فهل نراه اكتفى بذلك وركن إلى موطن راحته بعد هذا العناء الطويل ؟

الحق أنه لم يفعل .

وهل رأيت مبتكرا يكتفى - غير مرغم - بوضع النظرية ، دون أن يبين ما تثيره من مشكلات ، وما يكتنف تنفيذها من صعوبات ، ودون أن يضع الحلول ، ويعين البدائل ، ويرسم المنهج القويم لتطبيق ما هداه الله إليه بعد النظر والبحث .

إن ذلك يمكن حدوثه ، بل ويحدث فعلا فى مجتمعنا العلمى اليوم ، حيث ماتت روح المثابرة ، وضاعت مبادىء الصبر والجلد ، وتعجلنا جميعا قطف الثمار الفجة ، رغبة فى شهرة ، أو طلبا لمجد زائف ذاهب ، فصرنا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وعدمنا آثار الاختراع والابتكار ، دون أن نودعها على الأقل بفيض من دموع الألم والندم .

لكن مكيا وأقرانه لم يحدث عندهم ذلك ، فأبدعوا فى كل ما فكروا فيه ، واخترعوا فى كل ما تناولوه .

عايش مكى أفكاره الصوتية ، والتجويدية ، كما قال ثلاثين سنة ، يعلم ويلقن ، ويراقب ويلاحظ ، ويصوب ويقوم ، ويسجل ويدون ، وهو مع كل هذا يتنقل من مجتمع إلى مجتمع ، ومن وسط علمى إلى وسط علمى آخر ، حتى وضع يده على ما يواجه تلك الأفكار من عقبات ، وما يقف فى طريقها من صعوبات ، وعلى كيفية علاج كل هذا ، وتحقيق المثل التى عرفها رواية ، ودراية ، وتمييزا .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٢ .

يقول رحمه الله « وكل ما ذكرته لك من هذه الحروف ، وما نذكره لم أزل أجد الطلبة تزل بهم ألسنتهم إلى ما نبهت عليه ، وتميل بهم طباعهم إلى الخطأ فيما حذرت منه ، فبكثرة تتبعي لألفاظ الطلبة بالمشرق والمغرب ، وقفت على ما حذرت منه ، ووصيت به من هذه الألفاظ كلها ، وأنت تجد ذلك من نفسك وطبعك » [1] .

ويقول أيضا : « وقد رأيت كثيرا من الطلبة يشددون الخاء : من « الأخ » وذلك خطأ فاحش ، وإنما هي مخففة مكسورة كالباء من الأب » [2] .

ولا تقتصر ملاحظته على ما ذكر من الطلاب ، بل تمتد إلى الأئمة والقراء ، شأن من يريد الاستقصاء والشمول ، والوصول إلى جذور المشكلات وأصولها ، والتنبيه إليها بأسلوب الناقد البصير .

يقول ـ نفعنا الله بقوله : ـ ولا بد من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت ، فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة لصعوبة من لم يدرب فيه » [3] .

وليت شعري إذا كان اكثر من رأى مكي من القراء والأئمة في عصره يقصر في نطق الضاد ، فماذا نقول نحن في عصرنا هذا ، وقد نسي الناس التجويد ، وعدوه من الترف العلمي ، وليس فيهم أمثال مكي وطبقته ، يطوفون بالمشرق والمغرب ، لإحصاء الأخطاء ، وتتبع المشكلات ، وإرساء أسس التصويب والعلاج حتى لا يصاب أي حرف ـ كما أصيب الضاد ـ بخلل أو نقص أو زيادة لعلل تحدث فيه كما يذكر مكي .

أجل لقد أحصى مكي ما يكفي من مظاهر الخلل والنقص أو الزيادة من الحياة العلمية الواقعية . ومن أولى منه بهذا ؟ وقد مارس القراءة ، والإقراء والخطابة ، والإلقاء ، وكفى بهذا سبيلا إلى معرفة تلك المظاهر وما يتصل بها .

والمتأمل في تحذيرات شيخنا وتنبيهاته يرى أنه قد عبر عن تلك الأخطاء بأسماء عديدة من أكثرها :

١ ـ **التصحيف** : وقد عد منه قرب نطق الصوت من نطق صوت آخر قال : « فإن لم

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤٤ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٤٢ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٥٨ .

يتحفظ القارىء بإظهار لفظ التاء على حقها من اللفظ ، قرب لفظها من لفظ الطاء ، ودخل فى التصحيف » [1] .

كذلك جعل منه خروج نطق الصوت إلى نطق صوت آخر « ومتى قصر القارىء فى تجويد لفظ الظاء ، أخرجها إلى لفظ الضاد ، أو الذال ، لا بد من أحد هذين الوجهين ، وذلك تصحيف وخطأ ظاهر » [2] .

وإذا كان لم يصرح فى الحالتين السابقتين بتحول الصوت وصيرورته صوتا آخر فقد صرح بهذا عند حديثه عن الذال فقال « وإذا وقع بعد الذال حرف مفخم ، راء ، أو لام ، وجب التحفظ بترقيقها ، لئلا تتبع تفخيم ما بعدها ، فيدخلها الإطباق وتصير ظاء ، وذلك تصحيف » [3] .

وواضح أنه توسع هنا فى معنى التصحيف ، إذا أخذنا فى اعتبارنا تحديدات المؤلفين له ، مثل قول السيوطى فى المزهر :

« قال المعرى : أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته فى صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال ، فيغيره عن الصواب » [4] .

وراعينا ما ذهبوا إليه من ربطه بالرسم الكتابى وما به من نقط وشكل [5] .

٢ ـ الشوب والمخالطة :

وهما عنده بمعنى واحد تقريبا ، إذ الشوب هو الخلط ، وقد حذر منه فى حديثه عن التقاء الكاف بالقاف فقال : « وإذا وقعت الكاف بعدها أو قبلها وجب بيانها ، لئلا يشوبها شىء من لفظ الكاف ، لقربها منها أو يشوب الكاف شىء من لفظ القاف نحو « خالق كل شىء » [6] .

كذلك حذر منه فى حديثه عن التقاء الدال بالتاء [7] .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٨٠ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٩٤ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٩٩ .
(٤) المزهر : جـ ٢ ص ٣٥٣ .
(٥) انظر : د. محمد فرج عبد : فى اللغة ودراستها ص ١٠٣ وما بعدها .
(٦) الرعاية ص ١٤٥ .
(٧) المرجع السابق ص ١٧٧ .

أما المخالطة فقد حذر منها إذا ما التقت الجيم الساكنة بالتاء بعدها فأوجب « أن يتحفظ القارىء بإخراج الجيم من موضعها وإعطائها حقها وإن لم تفعل ذلك سارع اللفظ إلى أن يخالط لفظ الجيم لفظ السين ... » [1] .

ويدخل فى ذلك أيضا ما ذكره بالنسبة للسين يأتى بعدها حرف إطباق [2] .

٣ ـ اللحن :

وقد ذكره موصوفا بالقبح ، وحذر منه فى قوله « وإذا سكنت الياء التى هى لام الفعل ، لاتصال المضمر المرفوع بها ، وجب أن يتحفظ ببيان سكونها ، لئلا يدخلها شىء من كسر فيكون ذلك لحنا قبيحا فيها نحو « أرأيتم » [3] .

كما عد عدم التحفظ فى نطق الهمزة فى مثل « دفء » و « ملء » فى حالة الوقف منه قال « وإن لم تتحفظ من إظهار الهمزة فى هذا فى وقفك كنت حاذفا حرفا ولاحنا فى ذلك » [4] .

٤ ـ الخطأ :

وقد أشار إلى الوقوع فيه عند عدم التحفظ ببيان الهاء ، إذا ما تلتها الحاء فى مثل « اتقوا الله حق تقاته » قال : « فتحفظ ببيان الهاء لئلا تزداد خفاء عند الحاء ، أو تصير مدغمة فى الحاء ، وذلك كله خطأ فالتحفظ بها لازم » [5] .

وإذا كان قد عد ذلك مجرد خطأ ، فإن هناك ما سماه بالخطأ الفاحش وهو ما يقع من تشديد الخاء ، عند كثير من الطلبة فى كلمة « الاخ » كما مر ذكره [6] .

وقد ربط مكى بين الخطأ والطبع فى ملاحظته لطلبته تلك التى سبق أن ذكرناها ، وفيها يدعو قارئه إلى ما نسميه بالملاحظة الذاتية حتى يتبين له صدق ما ذهب إليه الشيخ [7] .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥١ .
(٢) الرعاية ص ١٨٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١٥٧ .
(٤) المرجع نفسه ص ١٢٥ .
(٥) المرجع نفسه ص ١٣٣ .
(٦) المرجع نفسه ص ١٤٢ وأنظر ص ٣٤ من هذا البحث .
(٧) المرجع نفسه ص ١٤٤ وأنظر ص ٣٤ من هذا البحث .

٥ ـ الالتباس :

وقد حذر مكى من وقوعه ، عند سبق النون الياء أو الواو فى كلمة قال : « ولو وقعت النون قبل الياء والواو فى كلمة لأظهرت ، ولم يحسن أن تدغم لئلا يقع الالتباس بالمضاعف ، وذلك نحو : بنيان وقنوان فافهم ذلك » [١] .

كما أشار إلى إمكان حدوثه ، عند عدم التحفظ ببيان الغين ، إذا وقع بعدها عين أوقاف لقرب مخرجها منها [٢] .

٦ ـ الحذف وذهاب حرف :

وقد ذكر مكى أن هذا يحدث فى الحالات الآتية :

أ ـ عند عدم التحفظ بإظهار الهمزة فى الوقف على مثل : « شىء » و « دفء » كما مر [٣] .

ب ـ عند عدم إظهار التشديد وتمكينه فى الوقف على ما ختم بياء مشددة مثل : الحَى ـ خَفِىٌّ [٤] .

جـ ـ عند عدم التحفظ فى نطق الياء المكررة فى كلمة أوكلمتين ، وإحدى الياءين مشددة مكسورة مثل : « إنَّ وَلِىِّ الله » [٥]

وقد أكد مكى التحذير من هذا ، بالنسبة لنطق الأصوات المشددة قال : « فيجب على القارىء أن يتبين المشدد حيث وقع ، ويعطيه حقه ، ويميزه مما ليس بمشدد ، لأنه إن فرط فى تشديده حذف حرفا من تلاوته » [٦] .

هذا وقد ذكر مكى عددا آخر من هذه المظاهر والعيوب وحذر منها مثل : الإحالة ، والتبديل ، والتغيير ، والتعسف ، والغلط ، والقبح ، والخفاء ، والتفكيك ، والنبر ، وزيادة بعض الحروف ، والإثقال ، والإدغام [٧] .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٣٩ وأنظر باب بيان أحكام النون الساكنة والتنوين ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٣ .

(٣) انظر ص ٣٦ من هذا البحث وأنظر ص ١٢٥ من الرعاية .

(٤) الرعاية ص ١٥٤ .

(٥) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٦) المرجع نفسه ص ٢١٩ .

(٧) انظر المرجع نفسه صفحات : ١٨١، ١٥٩، ١٢٠، ١٥٥، ١٥٧، ١٩١، ١٥٢، ١٥٤، ١٧٠، ١٦٨، ١٧٦، ١٩٧ .

ولم يكتف مكى ببيان أثر تلك الأخطاء على النطق والقراءة ، بل كان حريصا ـ كعادته ـ على الربط بين الأصوات والمعنى ، ومن ثم فقد بين أثر إهمال التجويد والتحقيق ، والتشويه الصوتى على الجانب المعنوى والدلالى .

ولما كانت الأزواج المتشابهة من الألفاظ ، أكثر تعرضا لذلك الاضطراب الصوتى ، وما يترتب عليه من التباس معنوى ، فقد حرص مكى على تنبيه الناطق إليها ، وتحذيره من الخطأ فيها .

يقول مكى : « وإذا وقع لفظ لمعنى هو بالسين أشبه لفظا آخر لمعنى آخر هو بالصاد ، وجب البيان للسين لاشتباه اللفظين ، وذلك نحو قوله تعالى : « وأسروا النجوى » و « أسروا الندامة » تبين لفظ السين لئلا يصير إلى لفظ قوله « وأصروا واستكبروا » فالأول من السر ، والثانى من الإصرار »[1] ويبين أن مثل ذلك يقال عن :

يسحبون و يصحبون

قسمنا و قصمنا

تسير و تصير

ثم يقول : وشبه هذا كثير[2].

وقد تعرض لمثل هذا عند حديثه عن الظاء وخشية التباسها بالذال فى مثل : محظورا ومحذورا إذا لم يبين الناطق الظاء جيدا فيخلط حينئذ بين معنيين مختلفين[3] .

وكم كان مكى مخلصا عندما أبت نفسه أن يترك قارئه حائرا أمام تلك الصعوبات والأخطاء التى يتعرض لها ، دون أن يعرف عللها وأسبابها ، فيستعين بذلك على مجابهتها لقد وعد مكى فى مقدمته أنه سوف يذكر تلك العلل والأسباب مع كل فصل من كتابه ، ومع كل حرف يتعرض لشرح نطقه وتجويده .

وقد وفى بما وعد ، فوضح لنا أن تلك الأسباب لا تكاد تخرج عما هو معروف فى القوانين اللغوية من تدافع المبدأين الهامين : مبدأ الثقل والخفة الذى يتحكم كثيرا فى عمل الناطق ،

---

(١) المرجع نفسه ص ١٨٨ .

(٢) انظر الرعاية ص ١٨٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٦ .

ويدفعه إلى الاقتصاد فى الجهد العضلى ... ومبدأ البيان أو الفرق كما سماه ابن [1] جنى ، والذى يحتاج إليه السامع ومن ثم كان من أهم لوازم اللغة والكلام .

إن الناطق أو المتكلم يميل ككل فاعل إلى طلب الخفة ، والاستسهال ، والاقتصار على أقل جهد يبذل فى اخراج الصوت ، وتتابع أجزاء الكلام ، وذلك أمر مشروع ما لم يؤد إلى الخفاء والغموض ، والخلط والاضطراب ، وعدم تمييز الأصوات بعضها من بعض ، وأمثال ذلك مما يبهم على السامع ويضيع حقه فى فهم الكلام .

إن السامع يطلب البيان الكامل ، والظهور التام ، لكل عنصر من عناصر الكلام ، ولا يسمح مطلقا لمبدأ الاستثقال أو « الاستخفاف » أن يؤدى إلى لبس أو غموض تذهب به وظيفة الكلام ، وإنما يسمح لهذا المبدأ ـ عند عدم اللبس ـ بالتأثير الذى يقبله نظام اللغة ، ويرتضيه المتكلمون والسامعون من أبنائها .

وإذن فلا حل إلا فى التوازن التام بين هذين المبدأين .

وقد حصر مكى كثيرا من الحالات التى ينعدم فيها التوازن ، بتغلب عامل الثقل أو الاستثقال ، ونبه على معالجتها بما يناسبها .

فمن تلك الحالات ما يرجع إلى طبيعة الصوت نفسه كبعد مخرجه أو حاجته إلى كثرة مئونة ، وشدة كلفة فى إخراجه ، فالهمزة مثلا « حرف بعد مخرجه فصعب اللفظ به لصعوبته .. » [2] « والضاد أصعب الحروف تكلفا فى المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ .. » [3] .

وقد يضاف إلى ذلك موقع الصوت فى الكلمة ، كالهمزة المتطرفة عندما يوقف عليها بالسكون « لأنها لما بعد مخرجها ، وضعفت ، وأتت فى آخر الكلمة ، وذهبت حركتها للوقف ، وضعفت بالسكون ، ضعف إظهارها فى الوقف ... » [4] .

كذلك يسبب تكرر الصوت ثقلا على الناطق « لأن فى اللفظ به صعوبة لأنه بمنزلة

---

(١) ابن جنى : الخصائص جـ ١ ص ١٤٥ وانظر : عبد الرحمن الحاج صالح : أثر اللسانيات فى النهوض بمستوى اللغة العربية ص ١٢٠ من أعمال ندوة خبراء ومسئولين لبحث وسائل تطوير اعداد معلمى اللغة العربية فى الوطن العربى : الرياض ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م .

(٢) الرعاية ص ١١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٤ .

الماشى يرفع رجله مرتين أو ثلاث مرات ويردها فى كل مرة الى الموضع الذى رفعها منه ، وقد مثل ذلك فى ثقله بمنزلة إعادة الحديث مرتين أو ثلاث . ألا ترى أن اللسان إذا لفظ بالتاء الأولى ، رجع إلى موضعه ليلفظ بالتاء الثانية ، ثم يرجع إلى موضعه ثالثة ليلفظ بالتاء الثالثة ، وذلك صعب فيه تكلف ، وقد مثله بعض العلماء بمشى المقيد فالتحفظ ببيانه لازم للقارىء ، ومعرفته لذلك زيادة فى فهمه وعلمه بحقيقة لفظه » [1] .

وكثيرا ما ينشأ الثقل من اقتران بعض الأصوات ببعض ، وقد أشار مكى إلى ذلك كثيرا ، وبين مع كل حرف تقريبا ما يتعرض له من اقترانات تؤدى إلى صعوبة النطق ، وتدفع بالمتكلم إلى طلب الخفة والسهولة فيقع فى الخطأ .

ومن ذلك قوله عن اقتران الجيم بالزاى : « فإذا سكنت الجيم وبعدها زاى وجب أن يتحفظ باظهار الجيم نحو قوله تعالى : « رجزا من السماء » .... فإنه إن لم يتحفظ ببيان الجيم صارت زايا مدغمة فى الزاى التى بعدها ... ليعمل اللسان عملا واحدا فى حرفين رخوين فكان ذلك أسهل من عمله فى حرف شديد وحرف رخو فيه صفير مع تقارب المخارج ... » [2] .

وعلى هذا الأساس نشأت فكرة جذب الحرف القوى المتقدم للحرف الضعيف ليكون مثله إذا ما كانا من مخرج واحد « ليعمل اللسان عملا واحدا فى القوة من جهة واحدة » [3] . ويتهيأ السبب للخطأ .

كذلك كان من آثار الاقتران : الميل إلى نطق الصوت السابق بصورة تناسب الصوت اللاحق ، على نحو ما بينه الشيخ فى اقتران الصاد بالدال فقد دعا إلى تصفية صوت الصاد حتى لا يخالطه لفظ الزاى « لأن الزاى من مخرج الصاد ، وهى فى الصفة أقرب إلى الدال من الصاد إلى الدال ، فاللسان يبادر إلى اللفظ بما قرب من الحرف وما هو أليق به من غيره ليعمل اللسان عملا واحدا ، فإذا تبين الصاد بيانا ظاهرا خالطها لفظ الزاى وذلك نحو « يصدر » « تصدية » و « قصد السبيل » و وشبهه » [4] .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٧٩ وما بعدها .
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٠ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٨٠ .
(٤) الرعاية ص ١٩٢ .

وبقيت علة من العلل التى ذكرها مكى ورأينا أنها ترجع بصورة عامة إلى إحساس الناطق بالثقل ومحاولته الخفة أو التخفيف فيقع فى الخطأ . إلا أن هذه العلة لا تشارك أخواتها فى ذلك المرجع ، بل إنها تكاد تعاكسها فى أثرها على الأقل فتدفع إلى الثقل ، بدل أن تهرب منه ويكون فى ذلك الخطأ المحذر منه .

وتتلخص هذه العلة فى ميل اللسان إلى الأصل ، كما يقول مكى ولنستمع إليه إذ يوضحها فيقول : « ويجب أن يبين الطاء إذا وقعت بعد صاد أو ضاد لأنها لا تكون كذلك إلا مبدلة من تاء زائدة وليست بأصل فيخاف عليها أن يميل بها اللسان إلى أصلها وهو التاء ، فبيانها هناك لازم وذلك نحو « فمن اضطر » أصله اضتر من الضرر على وزن افتعل ثم أبدلوا من التاء طاء ، لمؤاخاتها للضاد ، فى الإطباق والاستعلاء والجهر ، ولبعد التاء من الضاد وضعفها ، لأن التاء حرف مهموس فيه ضعف فقرن بالضاد حرف قوى مثلها ، وهو الطاء ، فأبدلت من التاء » [1] .

فهل نرى فى الفرار من الطاء إلى التاء هنا ميلا إلى الخفة على نحو ما مر فى الحالات السابقة ، أو أن ذلك يرجع إلى ما لمحه مكى من ميل الناطق أحيانا إلى ما استقر فى ذهنه من النظام اللغوى العام وقواعده الأساسية الغالبة ، التى ربما لا تتحقق بصورتها الكاملة فى عملية التنفيذ أو فيما يسمى بالكلام .

وهذا الميل يؤدى - بالطبع - إلى الخطأ ، حيث لا يسمح به نظام النطق أو الكلام .

وقريب منه ، الميل إلى المبالغة فى النطق أو شدة التفاصح ، كما يسميها بعضهم وما تؤدى إليه من تعسف وتكلف وقبح . كما يفهم من كلام مكى [2] .

تلك أهم مظاهر العلل التى رأى مكى أنها تدفع الناطق إلى ما دعاه خللا ، أو نقصا ، أو زيادة ، وعبر عنه بما سبق ذكره كالخطأ ، أو اللحن ، أو التغيير ، أو التصحيف وما إليها .

وبقى أن نأخذ من مكى طرق الوقاية وسبل الشفاء .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٢ وما بعدها .

(٢) انظر حديثه عن الهمزة وما نقله عن أبى بكر بن عياش صاحب عاصم ص ١٢٠ من الرعاية وانظر : فاندريس : اللغة ص ٨٠ وما بعدها .

إن مكيا لن يبخل علينا بهذا مطلقا ، وكيف يفعل ؟ وهو الذى يعلن منذ بدء عمله أنه لا يقصد غير تقديم العون لأهل تلاوة القرآن الكريم على تجويد ألفاظه ، وإحكام النطق به ، وأن من ائتم بكتابه هذا قام له « على تقادم الأعصار ، ومرور الأزمان ، مقام المقرىء الناقد البصير ، الماهر النحرير » [1] .

لقد رأى مكى أن تحقيق المستويين : الصوابى والجمالى ، إنما يتم بحرص الناطق أو القارىء على ما سماه بالبيان ، وكرر الدعوة إليه ، والتنبيه عليه ، مع كل حرف من حروف اللغة ، بل مع كل مظهر من المظاهر التى تتعرض لها تلك الحروف فى سياقات الكلام .

وقد سبق أن قلنا إن البيان ـ بصورته العامة ـ هو مطلب السامع من اللغة أو الكلام ، وهو فى معناه الواسع من أجل نعم الله وآلائه على عباده ، حيث قرنه الله عز وجل بنعمة القرآن فقال : الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » [2] .

وأصوات اللغة وحروفها من أول ما يجب أن يتحقق به البيان ، وعلى حد قول ابن فارس : « فهل يكون أول البيان إلا علم الحروف التى يقع بها البيان ؟ » [3] .

ومن ثم فإن بيانها ، وإظهارها ، وإبعاد كل شوائب الخفاء عنها غاية يجب أن يصل إليها كل ناطق ، فكيف بمن كان نطقه القرآن الكريم .

أرشد مكى قارئه الى كل هذا ، وعلمه شروط البيان ، ثم طالبه بتطبيق كل ما عرف على ما قدم له من أمثلة ، اختارها بعناية من كتاب الله .

وتدرج معه شأن المربى الناصح ، والأستاذ الواعى . فقدم له أول أمثلة تشتمل على الحرف أو الصوت ، فى سياق سهل النطق ، ميسر الإخراج ، ولم يطالبه ـ حيث لا صعوبة ولا مشكلة ـ بأكثر من نطق هذه الأمثلة مع وعى بما للصوت المقصود من حقوق وصفات . يقول مثلا عن القاف « فيجب على القارىء أن يفخمها تفخيما بالغا إذا أتت بعدها ألف كما يفعل بها إذا حكاها فى الحروف فقال : « ف » « ق » وذلك نحو قوله : « قالوا » و « قاموا » وكذلك يبينها بيانا خالصا ، ويفخمها إذا انفردت مفتوحة ، أو مضمومة نحو

---

(١) الرعاية ص ٤٣ .

(٢) الآيات الكريمة من سورة « الرحمن » : ١، ٢، ٣، ٤ .

(٣) ابن فارس : الصاحبى ص ١٢ .

« قليلا » و « قدمنا » و « قُدور » و « قُولوا » وشبهه » [1] .

فإذا اطمأنت نفسه إلى سلامة نطق الصوت ، فى السياق المتقدم ، خطا خطوة أخرى ، فقدم الصوت نفسه فى سياق صعب ، يمكن أن يتعرض فيه لخطأ أو تشويه ، إذا لم يتنبه الناطق لذلك ، أو ينبه إليه وذلك نحو قوله عن القاف أيضا «وإذاوقعت الكاف بعدها أو قبلها وجب بيانها ، لئلا يشوبها شىء من لفظ الكاف لقربها منها ، أو يشوب الكاف شىء من لفظ القاف نحو « خالق كل شى » و « كل فرق كالطود » و « وخلقكم » و « رزقكم » و « تركوك قائما » و « بكفرك قليلا » وشبهه » [2] .

لكن الصوت يمكن أن يتعرض لبعض الظواهر السياقية والتركيبية ، المقبولة فى نظام اللغة ، كالإدغام مثلا فهل ثمة احتمال خطأ يستدعى التحذير منه أو خفاء يتطلب التنبيه على اجتنابه ؟

أجل فالناطق قد يغره التماثل والإدغام فيخفى ما لا يجب إخفاؤه ، وينسى أن هناك على الرغم من إخفاء الصوت فى مقاربه ما يجب أن يبين منه .

ويشرح مكى هذا ويقدم له الأمثلة فيقول « وإذا سكنت القاف قبل الكاف وجب إدغامها فى الكاف لقرب المخرجين ، ويبقى لفظ الاستعلاء الذى فى القاف ظاهرا كإظهارك الغنة والإطباق مع الإدغام فى « من يؤمن » و « أحطت » وذلك نحو قوله « ألم نخلقكم » تدغم القاف فى الكاف ويبقى شىء من لفظ الاستعلاء الذى فى القاف » [3] .

فإذا تأكد مكى من إدراك قارئه لهذه النقطة الخفية ، وحرصه على ما يجب أن يظهر من صفات الصوت المدغم ، ونطقه الصحيح له قدم الصوت فى سياقات أخرى ، يتكرر الصوت نفسه فيها ، فيصعب نطقه بصورة أشد ، ويميل الناطق إلى التخلص من هذه الصعوبة الشديدة ربما بإخفائه ، وعدم إعطائه حقه إذا لم يفهم جيدا ، ويطبق بدقه قول الشيخ « وإذا تكررت القاف وجب التحفظ بإظهارها نحو « ومن يشاقق الرسول » و « من يشاقق الله »

---

(١) الرعاية ص ١٤٥ وعبارته « أن يفخم القاف » وإنما أضمرنا مراعاة لأسلوبنا مع التنبيه .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٥ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

و « يوم تشقق السماء » و « أفاق قال سبحانك » و « طرائق قددا » وشبه التحفظ باظهار ذلك واجب » [1] .

وهكذا يركز مكى على الصوت الواحد ، متعرضا لحالاته السياقية المختلفة ممثلا لها ، منبها على ما يلزم كل حالة من بيان ، أو إظهار ، أو تحفظ ، مراعيا فى تنبيهاته وأمثلته التفاوت النسبى فى احتمال الصعوبة ، أو الخفاء فى نطق الصوت ، فتراه أحيانا يكتفى بمجرد الدعوة إلى بيان الصوت ، على حين تراه يؤكد فى أحيان أخرى على هذا البيان ، ويؤكد الدعوة إلى تقويته وتمكينه ..

ولا ينسى كثيرا حيث لا صعوبة ولا خفاء أن يذكر بتجميله وتحسينه ... [2] .

ويدرك الشيخ - بوعيه الناضج ، وتفكيره المتفتح - أن اكتساب العادات اللغوية عامة ، والنطقية خاصة ، لا تكفى فيه مطلقا المعرفة المجردة ، والتطبيقات القليلة ، مهما أجاد الباحثون فى تيسير عرض القواعد ، وفى العمل على تثبيتها باختيار أو وضع الأمثلة .

وإذن فلا بد بعد معرفة النطق السليم ، والأداء الجيد ، نظريا وعمليا ، من العمل على تثبيته وترسيخه عند المتكلم أو الناطق بحيث يصير ملكة وطبعا وسجية .

لكن كيف يحقق ذلك ؟

رأى الشيخ أن ذلك يمكن تحقيقه بمراعاة الناطق لعدة أمور لفت نظرى منها : القياس ، والتدريب ، والتمييز . إذ رأيته يدعو قارئه إليها ، ويوقفه عليها ، مرة بالتصريح ، وأخرى بالإشارة أو التلميح ...

أما القياس فقد أشار إليه فى أول حديثه عندما ذكر وجه المفاضلة فى العلم بالتجويد عند القراء قال : « فمنهم من يعلمه رواية وقياسا وتمييزا ، فذلك الحاذق الفطن ، ومنهم من يعرفه سماعا وتقليدا فذلك الوهن الضعيف لا يلبث أن يشك ويدخله التحريف والتصحيف إذ لم يبن على أصل ، ولا نقل عن فهم » [3] .

كذلك تكررت دعوته إليه فى ثنايا الكتاب ، وبعد توضيحه لما يجب أن يكون عليه النطق

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٢٠ ، ص ١٢٧ ، ص ١٣٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ٦٩ .

المثالى ، فيما يعالج من أصوات أو ظواهر ، كقوله مثلا بعد شرحه لما يجب من تبيين فى واو المد إذا تلتها واو أخرى فى مثل « آمنوا وعملوا الصالحات » : « وهو كثير يقاس على هذا من أصناف وقوع الواو وما شاكله فيجرى على حقه وأصله » [1] . وقوله فى موضع آخر : « فقس على ما ذكرت لك من هذه الأصول .. » [2] وفى موضع ثالث « فافهم جميع ذلك وقس عليه تصب الصواب فى قراءتك إن شاء الله » [3] .

والظاهر أن مكيا يقصد بالقياس هنا ما أشار إليه ابن الجزرى فى قوله « أما إذا كان القياس على إجماع انعقد ، أو عن أصل يعتمد ، فيصير إليه عند عدم النص ، وغموض وجه الأداء ، فإنه مما يسوغ قبوله ولا ينبغى رده لا سيما فى ما تدعو إليه الضرورة ، وتمس الحاجة ، مما يقوى وجه الترجيح ، ويعين على قوة التصحيح ، بل قد لا يسمى ما كان كذلك قياسا على الوجه الاصطلاحى ، إذ هو فى الحقيقة نسبة جزئى إلى كلى .. » ثم ينقل عن مكى قوله فى آخر كتابه التبصرة :

« فجميع ما ذكرناه فى هذا الكتاب ينقسم ثلاثة أقسام : قسم قرأت به ونقلته ، وهو منصوص فى الكتب موجود ، وقسم قرأت به وأخذته لفظا أو سماعا وهو غير موجود فى الكتب ، وقسم لم أقرأ به ولا وجدته فى الكتب ولكن قسته على ما قرأت به ، إذ لا يمكن فيه إلا ذلك عند عدم الرواية فى النقل والنص وهو الأقل » [4] .

ومع أن حديث ابن الجزرى وما نقله عن تبصرة مكى يدور حول القياس فيما يتصل بالقراءات القرآنية وروايتها إلا أننا نستطيع الإفادة منه فيما يتصل بالتجويد وتعليم الأصوات ومعرفة مدى أهمية هذا المبدأ فى تحقيق النطق الجيد والقراءة السليمة .

وسواء قصد بالقياس « نسبة جزئى إلى كلى) أو « ما يثبته العقل من انسجام وتناسب بين بعض العناصر اللغوية والعلاقات التى تربطها ومن جهة أخرى ما يثبته من تناسب بين العمليات المحدثة لتلك العناصر على شكل تفريعى أو توليدى (من الأصول إلى الفروع) [5] سواء كان

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١٣ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣١ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٣٥ .

(٤) النشر جـ ١ ص ١٧ وما بعدها .

(٥) عبد الرحمن الحاج صالح : أثر اللسانيات فى النهوض بمستوى اللغة العربية ص ١١٩ .

هذا أو ذاك ، فإن المتعلم لا يملك الاستغناء عن هذا المبدأ ، إذ من المحال أن يقدم إليه كل نص ، وأن يوضع بين يديه كل استعمال ، وأن يأخذ كل شيء على سبيل السماع والرواية ، وأن يقيد بتلك الأمثلة التى تقدم له فى ظروف أهم ما تتميز به ، ضيق الوقت ، وقلة الزمن .

وإذن فعليه أن يعرف النمط ، وأن يدرك الأصل ، وأن يحقق الرواية ، ثم عليه بعد ذلك أن يكمل ما بدأ ، وأن يفرع على ما أصل ، وأن يُنظّر بين ما علم من المذكور ، وما لم يعلم من المتروك ، فيحقق الهدف ويكون ممن جمع بين الرواية والدراية ، وصار التجويد له طبعا وسجية ...

وإذا كان القياس عملية عقلية بحتة ، فإن هناك عملية تنفيذية وعضوية لا بد للقارىء والمتعلم من معايشتها ، وممارستها والمثابرة عليها إذا أراد ترسيخ سلوك لغوى صحيح ، أو أسلوب كلامى من جيد .

وهذه العملية يطلق عليها - فيما يطلق - تسمية « التدريب » وقد هدى مكى إلى معرفتها وإدراك آثارها ، فى التحقيق والتجويد وهو يشير الى هذا فيقول : « فنقل القرآن فطنة ودراية أحسن منه سماعا ورواية ، قال فالرواية لها نقلها ، والدراية لها ضبطها وعلمها .. » (١) .

فهل يقصد بالضبط هنا غير الممارسة والتدريب ؟

ويقول - رحمه الله - فى حديثه عن الضاد « ولا بد من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت ، فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة لصعوبة من لم يدرب فيه ... والضاد أصعب الحروف تكلفا فى المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ فمتى لم يتكلف القارىء إخراجها على حقها أتى بغير لفظها ، وأخل بقراءاته ، ومن تكلف ذلك وتمادى عليه صار له التجويد بلفظها عادة وطبعا وسجية » (٢) .

وهو يدعو قارئه دائما إلى التحفظ فى نطق ما قدم له من أمثلة ، ويدعوه إلى القياس على ما ذكر له من أصول ، ثم يقول له « وخذ نفسك فى تلاوتك باستعمالها ، يصر لك طبعا وسجية وتحسن ألفاظك بذلك ، وتقرأ على أصول وصواب .. » (٣) .

---

(١) الرعاية ص ٦٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٣٢ .

وقد قدم مكى من الأمثلة ما يكفى لتدريب أعضاء النطق ، وإكسابها المرونة اللازمة للتغلب على أى صعوبة تنشأ من نطق الصوت نفسه أو من نطقه مقترنا بغيره ، ولم يأل جهدا فى شرح عملية النطق وتيسيرها على الناطق بكل وسيلة ممكنة .

فمن ذلك مثلا تقديمه الصورة النطقية الواضحة ، لينطق القارىء على مثالها الصورة الصعبة أو الغامضة ، فيمرن بذلك عليها ، ويزول ما يحسه فيها من صعوبة أو ثقل .

يقول ـ رحمه الله ـ فإن كانت الهمزة المفتوحة لينت بأن أبدل منها حرف غيرها ، لفظت بالحرف الذى هو بدل من الهمزة خالصا لا يشوبه غيرها نحو الهمزة الثانية من قوله تعالى « السفهاء ألا .. » و « يا سماءُ أقلعى .. » تلفظ بهما وشبيهها فى موضع الهمزة الثانية بواو خالصة مفتوحة فيصير لفظك بقوله تعالى : السفهاءُ ألا .. » بمنزلة لفظك بقوله عز وجل : ألا إنهم هم السفهاءُ وَلكن ... » الأول أصله همزتان ، والثانى أصله : همزة وواو مفتوحة واللفظ واحد » [1] .

وهكذا كان مكى رائدا حقيقيا لأئمة التجويد الذين عرفوا أهمية التدريب ، وتمرين أعضاء النطق ، على ضبطه ، وإحكامه ولله در ابن الجزرى إذ يقول : ولا أعلم سببا لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد ، ووصول غاية التصحيح والتسديد مثل رياضة الألسن ، والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن ، وأنت ترى تجويد حروف الكتابة كيف يبلغ الكاتب بالرياضة وتوقيف الأستاذ ، ولله در الحافظ أبى عمرو الدانى رحمه الله حيث يقول : ليس بين التجويد وتركه إلا رياضة لمن تدبره بفكه فلقد صدق وبصر وأوجز فى القول وما قصر .. » [2] .

أما التمييز والتفريق بين الصور النطقية المختلفة والأصوات القريبة المتشابهة ، فلا أظن طالبا للأداء أو النطق المثالى يستطيع الاستغناء عنه أو عدم التمكن فيه .

ومن ثم فإن أصحاب المناهج الحديثة ، يحرصون اليوم أشد الحرص على تكوين إحساس تمييزى عند المتعلم ، بما يقدمون من أمثلة للمقارنة وبما يتيحونه للمتعلم نفسه من فرص النطق والموازنة فى مختبرات اللغات ، ومعامل الصوتيات .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢١ .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢١٣ .

وقد حرص مكى من أول الأمر على بيان أهمية تلك المهارة التمييزية ، حيث بين أن التمييز يعد أحد الأركان الثلاثة ، التى يعتمد عليها علم التجويد ، وتتحقق بتحصيلها درجة الحذق والفطنة لعلمائه [1] .

كذلك نقل مكى عن ابن مجاهد صفات « الإمام الذى يفزع إليه حفاظ القرآن ، من كل مصر من أمصار الإسلام » وكان من بين هذه الصفات أن يكون عالما بصيرا بعيب لفظ القراءة متقدا للآثار [2] .

وكان مكى حريصاً أيضاً على إثارة الإحساس بالتمييز عند قارئه فى معظم إن لم يكن فى كل ما قدمه من معرفة نظرية أو أمثلة تطبيقية ولذلك كثر كلامه عن علاقات الأصوات وتأثير بعضها فى بعض وعن التفريق فى صور النطق وحالاته .

يقول : فيجب على القارىء أن يفرق فى لفظه بالمشددات بين ما هو بالغ فى التشديد ، وما هو متوسط فى التشديد، ويشدد كل مدغم ليس فيه غنة ظاهرة ولا إطباق ولا استعلاء، ويظهر مع الإدغام تشديدا بالغا ، ويشدد ما فيه غنة أو إطباق يظهران مع الإدغام تشديدا دون ذلك ، فيعطى كل حرف حقه ويميز فى تلاوته بين بعضه وبعض » [3] .

وبعد فقد أزفت الساعة ، وتحركت آلات الطباعة ، وما انتهينا بعد من حديث مكى ، ولا مللنا من مجالسته ، ولا قضينا من مجالس القرآن فى قرطبة كل حاجة . وكيف ؟ ونحن ما قرأنا محاضرها ولا تتبعنا مراسمها - التى تتابعت فى ثلاثين سنة - إلا لمدة شهور مع كثرة المشاغل وتعدد الصوارف ..

ومع هذا كله فما أظننا خرجنا من رعاية مكى بالشىء القليل ، وإن بقى فيها الجم الكثير .

لقد تتبعنا من أجله التفكير الصوتى والتجويدى والتأليف فيه حتى اتضحت لنا أصالة هذا العمل ، وأوليته ، وتفرده فى عصره ، وجدارته بالاعتماد عليه ، والرجوع إليه ، فى قضية أصوات القرآن الكريم تجويدا وتحقيقا .

ثم تأملنا موضوع الكتاب ، وغرض صاحبه فيه ، حتى وقفنا على نظريته فى دراسة الأصوات ، وتعليم التجويد ، وعرفنا كيف كانت عنايته فى هذه النظرية ، باثارة دوافع

---

(١) الرعاية ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٢٠ وما بعدها .

المؤمن ، وتحريك عواطفه ، ليقبل على كتاب الله ، تعلما وتعليما ، ودراسة وتجويدا، وعملا وتطبيقا ، مخلصا عمله كله لله رب العالمين .

كما عرفنا من هذه النظرية ، مدى عناية مكى بالبحث النظرى ، والمعرفة العقلية ، وأهمية الإحاطة والدراية ، بكل ما يتصل بأصوات الكلام : قيمتها ، عددها ، وظائفها ، مخارجها ، صفاتها ، وجودها فى اللغات الأخرى ، إلى غير ذلك مما يلزم المتعلم والعالم .

ومنها أيضا أدركنا فكر مكى الرائع ، فى توحيد النمط ، واختيار المثال المتفق عليه ، حتى لا يتشعب فكر الطالب ، وتختلف أمامه السبل ..

ومن أجل هذا النمط كانت فكرة عيار الحرف ، وميزانه ، تنير للناطق فلا يضل ولا ينسى .

ومن أركان تلك النظرية كان الركن العملى والتطبيقى يقوم على أسس ثابتة ، من تحرير الأخطاء ، ومعرفة مظاهرها ، وأسبابها ، وعللها ، وأمثلتها ، وطريق تجنبها التدريجى ثم التدريب على النطق السليم ، والقياس على المثال القويم ، والتميز بين صور النطق ومستويات الأداء .

لقد عرضنا لكل هذا وغيره مما يتصل به ، وذلك بقدر ما وسعته الطاقة ، وأعان به الفهم والتدبر ، وأسعفنا فيه النظر والاستنباط ، وإننا لنأمل ألا نكون قد ظلمنا الرجل فنسبنا إليه ما ليس له ، أو تركنا ما حقه أن ينسب إليه ، وعذرنا فى ذلك أننا لم نتعرض بعد لتقويم فكره ، بصورة عامة ، فما كان هدفنا إلا الوقوف على رأيه ، فيما طرحناه من أسئلة فى أول بحثنا ، وعسى أن يكون القارىء قد وقف على ذلك ، وعرف إجابة مكى عن تلك الأسئلة مما قدمنا .

وإذا كان ذلك كذلك ، فانى أرجو تأييد القارىء فيما أقدمه إلى جامعاتنا وهيئاتنا العلمية من هذه المقترحات :

١ ـ العناية بتدريس التجويد والأصوات فى المرحلة الجامعية باعتبارهما علما مستقلا له منهجه وساعاته المقررة .

٢ ـ الإفادة فى دراسة التجويد وتدريسه بكل ما وصل إليه علم الصوتيات الحديث من مناهج علمية ، ووسائل تقنية ، وأجهزة ، تعرفها المعامل والمختبرات .

٣ ـ جمع التراث التجويدى ، والصوتى ، والعمل على تحقيقه ، ونشره وتيسير الاطلاع عليه .

٤ - تشجيع البحث ، والتأليف ، فى علم التجويد ، والأصوات ، وإجراء البحوث النظرية والتطبيقية فيهما .

٥ - نشر الثقافة التجويدية ، في المجتمع الإسلامى وخاصة بين الأئمة ، والمعلمين ، والمشتغلين بالدعوة والإعلام ، وسائر الفنون الكلامية .

٦ - الإكثار من المسابقات فى حفظ القرآن الكريم ، وتجويده ، علما وأداء ...

وختاما ، فمن فضل الله أنى أخط هذه الحروف ، فى الرياض ، والأثير ينقل إلى مسامعى ، من مهبط الوحى الأول فى أم القرى ، أخبار المسابقة العالمية الثانية فى حفظ القرآن الكريم ، وتجويده ، فتهتز نفسى ، وينشرح صدرى ، وأتطلع إلى السماء ثم أسمعنى أقول : هل من مزيد .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

أهم المصادر والمراجع

١ ـ التهانوى (الشيخ المولوى محمد أعلى بن على) :

موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون ـ بيروت ١٩٦٦ .

٢ ـ ابن الجزرى (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد) :

ـ غاية النهاية فى طبقات القراء عنى بنشره ج . برجستراسر ـ القاهرة ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م .

ـ النشر فى القراءات العشر . أشرف على تصحيحه ومراجعته الشيخ على محمد الضباع ـ بيروت مصورة عن طبعة التجارية بالقاهرة .

٣ ـ ابن جنى (أبو الفتح عثمان) :

ـ الخصائص حققه الشيخ محمد على النجار ـ بيروت : مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .

ـ سر صناعة الإعراب تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ القاهرة ١٩٥٤ .

٤ ـ حاجى خليفة (مصطفى بن عبدالله) :

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ بغداد مكتبة المثنى .

٥ ـ الراغب الأصفهانى (أبو القاسم الحسين بن محمد) :

المفردات فى غريب القرآن تحقيق وضبط محمد سيد كيلانى ـ بيروت (بدون ذكر سنة الطبع) .

٦ ـ ستوتزر (دوليم) :

نموذجان لتعليم مسائل الصوت والكتابة باللغة العربية بحث ألقى فى الندوة العالمية الأولى لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها الرياض ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

٧ ـ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :

المزهر فى علوم اللغة وأنواعها تحقيق محمد أحمد حاد المولى وآخرين ـ القاهرة دار إحياء الكتب العربية .

٨ ـ عبد الرحمن الحاج صالح :
أثر اللسانيات فى النهوض بمستوى اللغة العربية بحث مقدم الى ندوة خبراء ومسئولين لبحث وسائل تطوير إعداد معلمى اللغة العربية فى الوطن العربى المنعقدة فى الرياض ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م بالقاهرة : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .
٩ ـ عبدالله ربيع محمود (د) :
من مشكلاتنا الصوتية فى نطق العربية الفصحى وتعليمها مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد الثامن ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .
١٠ ـ ابن فارس (أبو الحسين أحمد) :
الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها تحقيق السيد أحمد صقر ـ القاهرة ١٩٧٧ م .
١١ ـ ج . فانلريس : اللغة :
تعريب عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص (د) ـ القاهرة ١٩٥٠ م .
١٢ ـ لبيب السعيد (د) :
الجمع الصوتى الأول للقرآن الكريم أو المصحف المرتل : بواعثه ومخططاته ـ القاهرة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .
١٣ ـ محمد حسين آل ياسين (د) :
الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث ـ بيروت ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .
١٤ ـ محمد فرج عيد (د) :
فى اللغة ودراستها ـ القاهرة ١٩٧٤ .
١٥ ـ محمد مكى نصر (الشيخ العلامة) :
نهاية القول المفيد فى علم التجويد ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ بمراجعة الشيخ على محمد الضباع .
١٦ ـ مكى بن أبى طالب (أبو محمد القيسى) :
الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات ـ دمشق ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .